محمود السعدنى

وَدَاعًا للطّواجن



دار الشروق

وَدَاعًا للطّواجن

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلّم عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣
فـاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
فـاكس : ٨٦٧٥٥٥ ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

محمود السعدنى

وَدَاعًا للطّواجن

دار الشروق

جحا المصري على مسرح الحياة

يمثل محمود السعدني ظاهرة فريدة فى الأدب العربى المعاصر، كما يمثل ظاهرة فريدة أيضا فى حقل الصحافة العربية . . إنه ذلك الذى اجتمعت فيه خصائص الأديب العربى كما عرفته مجالس البصرة والكوفة، بخصائص الشخصية المصرية المسماة بابن البلد، الذى يتردد على المقاهى فى المدينة ، وعلى المصاطب فى القرى، وشطآن المصارف والقنوات . ترى فيه الجاحظ وعبد العزيز البشرى، مع شاعر الربابة والفرفور والحاوى؛ يستطيع إبهارك فى كل لحظة بكل مثير عميق وطريف خلاب؛ حيث تكونت لغة طيعة بليغة شديدة الثراء شديدة الوضوح، ناعمة حادة كشفرة الموسى إن لم تتعامل معها بحذر وحذق جرحتك وأسالت دمك.

بهذه اللغة أصبح السعدنى ـ ربما ـ هو الوحيد من بين كتاب العربية المعاصرين الذى يستطيع قول مايريد قوله دون أن تمسك عليه إدانة واحدة ولو بسيطة ؛ يستطيع كذلك انتقاد أى وضع وأى شخصية بكل حدة وقسوة دون أن يتورط فى أى خروج عن اللياقة أو حدود الأدب.

وهو كاتب يتسق مظهره مع جوهره، فهو أفندى مع الأفندية ، بلباس افرنجى أنيق كنجوم السينما بل أشد أناقة؛ وهو بلدى مع أبناء البلد بجلباب وعباءة وطاقية وعصا عوجاية. وأصدقاؤه من أولاد البلد والعمال والفلاحين والحرفيين أكثر بكثير جدًا من أصدقائه المثقفين. بل

إنه لايستريح إلا مع أصدقائه الخارجين عن دائرة المثقفين، حيث يتوهج وينطلق فى المرح بغير حدود .

إن محمود السعدنى كالفولكلور العربى ملىء بالوهج والحكمة والمكر الجميل الواضح ، الذى يجيد إبرازه بصنعة لطافة حين يريد إشعارك بأنك المسئول عن دفعه إلى المكر بك .

يعشق الحوارىَ والغيطان والمقاهى البلدى وزكريا الحجاوى، يعشق السفر والترحال، يعشق التفانى فى خدمة الآخرين ومشاركتهم فى آلامهم والعمل على إزاحة أكبر قدر ممكن من مسببات قلقهم.

ترى هل أضاع محمود السعدنى عمره الفائت هدرا، فى سفر ومعتقلات وهموم عيال واغتراب؟ هل أكلته ماكينة الصحافة فأحالته إلى مجرد صحفى جوال يبحث لها عن المثير والمسلى من الأمور الفكهة؟ أم إنه استطاع أن ينجو من ذلك ويصنع لنفسه مكانة خاصة فى ثقافتنا العربية المعاصرة؟

لاأظننى متحيزًا أو مجاملا إذا قلت إننى مع الشطر الأخير من السؤال. . وتعالوا بنا ننظر فى إنتاج السعدنى ونستقرئ أعماله الفنية لنعرف قيمته الحقيقية.

بادئ ذى بدء علينا أن نتذكر أن محمود السعدنى جزء مهم جدا من نهضة القصة القصيرة العربية. فبعد جهود الرواد العظماء من أمثال يحيى حقى ومحمود تيمور وإبراهيم المصرى ومحمود كامل المحامى وطاهر لاشين وعيسى عبيد وخيرى سعيد وغيرهم، استطاع فن القصة القصيرة أن يترسخ فى أرض الثقافة العربية ويفرض لنفسه مكانة مرموقة بين المتأدبين من أصحاب القلم . وكانت المدرسة التى شكلت فجر القصة المصرية كما أثبته يحيى حقى قد استفادت من هذه المكانة ، وعملت على إلباس هذا الفن روحا عربية خالصة، فبعد أن كانت القصة مجرد محاكاة

حرفية للقصص الأجنبى ـ الفرنسى والروسى بوجه خاص ـ جاء كُتّاب هذه المدرسة الحديثة عربا بكل معنى الكلمة، يقدمون نماذج أقرب إلى الحياة وإلى الناس الذين نعرفهم فى حياتنا ، مع بعض الاختلاف بين الرومانسية والواقعية .

أما محمود السعدنى فكان أكثر التصاقا برجل الشارع المصرى، واكتشاف آفاقه الحقيقية الكامنة وراء مظهره الساذج الأمى المتخلف، واكتشاف الحكمة الكامنة فى حياة الصياع والضائعين والمحتالين والنصابين ، وكنه الحياة الحقيقية لدى الحرفيين والمعدمين ، وفهلوة ابن البلد المصرى وكيفية تعامله مع الحياة وفهمه لها : بلغة هى لغة الحياة اليومية فى الشارع المصرى وعلى المقاهى وبين الأفران والورش والمصاطب الريفية وبمبوطية بورسعيد والسويس والإسماعيلية . وهى لغة اكتسبت على يديه جزالة عربية وفصاحة لافرق بينها وبين لغة الأدب العربى القديم فى أزهى عصوره مع أنها ترد على ألسنة العامة؛ اللهم إلا فى وضوح السعدنى ونصاعة بيانه بشكل يفهمه الأمى لو قرىء له فهما تاما .

نستطيع القول بضمير مستريح إن السعدنى نجح فى « دحلبة» القواميس العربية القديمة؛ واحتال بسحره على مفرداتها الضخمة المهيبة ذات الأرستقراطية العريقة؛ حتى أغراها بالنزول معه إلى الشوارع والعشش والأخصاص والمقاهى ومراكب الصيادين. فلما رافقته فى جولاته هذه واستشعرت كل عشقه لها؛ عشقته بدورها وأعطته نفسها كاملة غير منقوصة، كشفت له أسرارها وقد أحبت شقاوته، واستجابت لمقالبه وفصولاته المضحكة البريئة؛ أحبت همومه ومشاكله فأعانته على شرحها والتعبير عنها بسهولة ويسر شديدين، مع الرصانة والعمق والنفاذ، على أرضية من الصدق، عبر الأشكال القصصية والصحفية العديدة التى مارسها فلم يستعص عليه شىء منها على الإطلاق .

وإلى كل ذلك فمحمود السعدنى متحدث على درجة عالية من اللباقة وحلو الحديث ورقة الحاشية والامتلاء بالحكمة والمعلومات . وإذا تحدث السعدنى فإن كائنا من كان لا يملك إلا الاستسلام لحديثه فى طمأنينة، مستعداً لتقبل كل ما قد يلحقه من سخرية أو تريقة؛ إنه يستخسر مقاطعته ؛ لسبب بسيط هو أنه ليس بين الجالسين من يصلح أن يكون بديلا له .

السر فى ذلك أن محمود السعدنى ليس صوتا واحدا، إنما هو عشرات من الأصوات ممزوجة فى روى واحد : فأنت تسمع جوقة كاملة من الأصوات شديدة التنوع. أصوات ملوكية وأصوات كحيته وأولاد بلد وحوذية وبويجية جرسونات وفواعلية وأولاد عرب وفلاحين وصعايدة، وحين أقول بتعدد الأصوات فى صوته فلست أعنى الصخب، أو أنه يقوم بتمثيل هذه الأصوات كأنماط حياتية بيئية استوعبها الكاتب فبات تمثيلا بيانيا لكل هؤلاء يحمل وثائقهم فى قلبه .

ولو لم يكن محمود السعدنى كاتبا لكان ممثلا لا يشق له غبار ولاينافسه أحد من معاصريه؛ فلديه محصول من الذكاء وخفة الظل وموهبة المحاكاة الواعية المتطورة جيدا، لدرجة أن شقيقه الأصغر صلاح السعدنى ورفاقه مثل عادل إمام وسعيد صالح ويونس شلبى وأحمد زكى حين يجلسون فى حضرة محمود السعدنى يتحولون إلى كومبارس . والواحد منهم يقول ياسابل الستر كى تنتهى الجلسة على خير فلا يخطئ أمام السعدنى أو ينطق بقول غير موزون وإلا فإن طوب الأرض سيضحك عليه ضحكا صافيا رائقا .

خيرى شلبى

وداعاً للطواجن!

ومع الاعتذار لعمنا الكبير أرنست همنجواى مؤلف رواية (وداعا للسلاح) والذى أطلق النار على نفسه فى النهاية وأراح واستراح، نعتذر له لأننا تجرأنا وكتبنا (وداعا للطواجن) وإن كان من المؤكد أن الطواجن أشد فتكا من أى سلاح! والأكل لذة من لذات الحياة ، وبعض الفلاسفة يقولون إن بعض الناس تأكل لتعيش وبعضها يعيش ليأكل، ولكن تجربة العبد لله فى الحياة تؤكد أن كل الناس تعيش لتأكل، حتى الرزق اسمه أكل عيش! وأبرز فرق بين الفقراء والأغنياء هو الأكل. والأغنياء يأكلون المحمر والمشمر والمخمر والمفرم ـ يعنى المفروم ـ مزغط وفراخ شمورت وحمام زغاليل ولحم بلدى لبانى على حولى على بتلو راعى برسيم أخضر حجازى فى لون دولة بنى فاطمة الزهراء. والفقراء يأكلون الفول المدمس والفول النابت والفول الطعمية والفول الحراتى، وبعضهم يكتفى بالجبنة القديمة وقشر البرتقال المخلل، والبعض منهم يأكل قشر البطيخ منقوع فى البلاص.

أعرف جماعة من الفقراء أيام زمان اقتبسوا جلابية جزار ونقعوها فى الماء المغلى، وعملوا تسقية على شوربة الجلابية وسهروا سهرة حمراء ولا شلة أغاخان على شاطىء كان!

الأكل من لذات الحياة مفيش كلام، مهما ادعى بعض الأدعياء من أنصار الحنجورى ومن أتباع الطريقة الخنفشارية الشنديدية البشندية، الذين ينصحون الناس بالتقشف والرضى بما قسم الله، حتى القرآن

الكريم وعد المؤمنين بأنهار من اللبن الطازج والعسل المصفىٰ ولحم طير مما يشتهون. وكان المرحوم عبد الحميد قطامش إذا أكل أكلة من أياها بكى بالدمع الهتون من شدة اللذة، وكان كامل الشناوى لوردا فى أكله، يختار الأطايب وينتقى المزز ويشعر بنشوة وهويتذوق الطعام. ومأمون الشناوى هو الذى دلنى على طريق الجبنة البلكان والزيتون الكالاماتا والأنشوجة الأسبانى والبصل الطليانى. وكان محمد عودة هو دليلى إلى الكرواسان والفواجرا، والسلطة النيسواز نسبة إلى مدينة نيس الفرنسية. أما زكريا الحجاوى فكان يعرف أطايب الطعام، وكان منظره يفتح النفس وهو يأكل. وهو الذى فتح معدة عيون العبد لله على شبار الجوابى وسمك الطوبار والسهلية والمياس وطير الشرشير والبلبول والخضراى والحمراى. وكان الشيخ عبد الوارث الدسوقى هو أستاذى فى الليمون المعصفر مع البصل البحيرى، وياسلام لوصينية سمك زحاليق باليخنى وعرقين سريس من النوع الذى يحول البنى آدم إلى قاذفة ألغام. وكان المعلم سرور أبو هاشم هو أول من دلنا على طريق الطواجن... الله يخرب بيتها. ولم تكن « طواجن» من النوع العادى، ولكنها طواجن لو أكل منها إنجليزى حر من بتوع بريستول لسقط ميتا فى الحال. طاجن سرور أبو هاشم كان فى حجم حجرة صغيرة، وفى هذه الحجرة الصغيرة كان عمنا سرور يضع قطعا من اللحم الكندوز منتقاة بعناية ، ومع اللحم مغرفتين سمن بلدى فى حجم سلطانية الطرشى. ومع السمن بصل صعيدى يكفى حارة مصرية لمدة عام ومع البصل شوال فلفل أخضر حراق، وكمية بهارات من النوع الذى كان مستعملا فى بلاط خالد الذكر السلطان عثمان حيدر أباد. وعلى سطح الطاجن كمية من جوزة الطيب تكفى واحدة منها لتخدير ثور صومالى عنيد. والعبد لله كان من أكلة الطواجن قبل معرفتى بسرور أبو هاشم، وأكلتها فى أثينا

والمغرب ويسمونها الطاجين . ولكنها كانت طواجن بامية وطواجن ثورلى وطواجن لحمة ، ولكن طواجن سرور أبو هاشم لم يكن لها مثيل فى طواجن أمم الأرض . ومات سرور أبو هاشم وتولى المهمة من بعده الحاج سيد مخيمر، وورث الطواجن عن الاثنين الحاج إبراهيم نافع . ولكن الأمانة العلمية تفرض علينا أن نعلن الحقيقة المرة ، وهى أنه لاسيد مخيمر ولا إبراهيم نافع استطاعا الوصول إلى قمة العمل الدراماتيكى الريلكتيكى الميتافيزيقى الذى كان صفة طاجن العم سرور، وباختصار كان طاجن العم سرور هو العمدة بين الطواجن ، وصاحبه هو أستاذ بكرسى فى جامعة الطبيخ . وآه من طاجن العم سرور تأكله أحيانا فتنام ، وتأكله أحيانا فتموت!

وزمان فى زمن الحلم الذى ولى والشموخ الذى كان ، اتصل بى مسئول فى الاتحاد الاشتراكى وسألنى هل عندكم فى الجيزة فلاحون يتكلمون فى الاشتراكية ويؤمنون بحتمية الحل الاشتراكى للوصول إلى مجتمع الوفرة والسعادة والعيش اللذيذ؟ وسألت المسئول الاشتراكى . . . ليه؟ قال . . لدينا ضيف عربى يريد أن يطمئن على أن مفهوم الاشتراكية وصل بالفعل إلى الناس العاديين . قلت له بسيطة . وأعطانى عنوانه فى الأوتيل وطلب منى الاتصال به وترتيب لقاء مع بعض (الكوادر) الاشتراكية من أبناء البلد عمالا وفلاحين . الطلب كان صعبا للغاية ، لأنه كان لدينا فلاحون وعمال استفادوا من القرارات الاشتراكية دون فهم لها ، لأن المكاسب جاءتهم بالساهل وعلى الطبطاب . قد يكونون حلموا ذات ليلة بالمكاسب الاشتراكية ولكنهم لم يناضلوا من أجلها ولم يدخلوا السجن فى سبيل الحصول عليها . وكان عندنا فى الجيزة كمسارى يحفظ الميثاق عن ظهر قلب ويردده . وقبل الثورة كان من هتيفة حزب من الأحزاب ، ثم اعتنق مبادئ هيئة التحرير قبل أن تعلن أى مبدأ ، ثم وقع

فى غرام الاتحاد القومى، ثم آمن بالاتحاد الاشتراكى ويتكلم باللاوندى عن حتمية الصراع الطبقى (نسبة للطبقان وليس نسبة للطبقات) ثم هرول الكمسارى إياه نافخا فى صفارته ولحق بقطار الاتحاد الاشتراكى بعد ١٥ مايو، وهو الاتحاد الاشتراكى الذى كان (يخدم ولا يحكم) فى عهد أنور السادات. ثم قفز من سفينة الاتحاد الاشتراكى الخدام إلى حزب مصر ثم إلى الحزب الوطنى . المهم أننى اخترت خمسة عشر شخصا واستبعدت الكمسارى إياه، ونصبنا القعدة عند الحاج سرور أبو هاشم وعملنا الطواجن إياها، وأكل الضيف ولكنه لم يناقش أحدا، لأنه بعد أن أكل الطاجن وسلطانية الطرشى نام وارتمى بين الظلام على رأى عمنا كامل الشناوى ، وعندما أفاق بعد ساعات كان يبدو عليه الإجهاد . فالأكلة ثقيلة والطاجن آخر دسامة ، والصنعة ترشح العم سرور للقيام بدور الشيف فى مطعم مكسيم. وطلبنى المسئول الاشتراكى فى اليوم الثالث، وسألنى: أنت عملت إيه فى الضيف؟ قلت له: جمعته بالناس. وسألنى: وناقشهم؟ لزمت الصمت فترة ثم قلت للمسئول هو زعلان ولاحاجة؟ قال: بالعكس . . إنه يكاد يجن من فرط السرور، لقد اطمأن على النظام الاشتراكى وانشرح قلبه بوصول المفاهيم الاشتراكية للناس الذين فى القاع.

نعود مرة أخرى إلى الإخوة الأكيلة وهم أشكال على ألوان أخينا الفنان محمد رضا شفاه الله بطل أبطال العالم على حلبات الطعام. وياحلاوة منظره وهو يأكل خصوصا لو كان على مائدة مع إبراهيم نافع ومحمود غريب المحامى ولكن كان هذا عهدا ومضى. والآن يسمع محمد رضا عن الأكل كما يسمع عن نزول رائد الفضاء على أرض القمر. وأخونا المهندس على والى يسافر إلى الخارج كثيرا ويرتكب كل ليلة جريمة التردد على مطعم مختلف . آخر مرة فى لندن صحبنى إلى مطعم« بورمى» نسبة

إلى بورما، ولكنى اكتشفت بعد الأكل أنه مطعم «بورجمى». وأقول لكم ياسادة ياكرام أنا فى حياتى لم أتناول طعامى من المجارى، ولكن المجارى ألذ بالتأكيد من المطعم البورجمى أياه. لأن بورما التى هى دولة من دول جنوب شرق آسيا وذلك العب كله مشهور بالنكهة واللذة والتفنن فى الطهى التمام.

والعبد الله أكيل ممتاز جرب كل أنواع الأكل التى عرفها البشر من آدم وحتى الآن. أكلت لحم القرود النسانيس فى غانا، وأكلت لحم الفيل أبوخرطوم فى جنوب السودان، وأكلت لحم الطاووس فى إيران، وأكلت المرارة والشرموت فى شمال السودان وأكلت الجراد فى مالى وأكلت الدود فى هونج كونج، وأكلت الجمل البعرور فى الخليج، وأكلت السرومباء عند سيد مخلوف فى الإسماعيلية، وأكلت الضفادع فى فرنسا، والباهية فى أسبانيا والسمك المسجوف فى العراق وأكلت الغبقة فى الكويت، والمنسف فى الأردن والمبكبكة والبازين فى ليبيا. أما المبكبكة فياميت حلاوة عليها، أما البازين فهى الخالق الناطق.. لمؤاخذة!

ولكن لأن العبد لله مثل عمه المتنبى، خلقت ألوفا فقد ظل ولائى الأكيد والوحيد للطاجن. ومن شدة حبى للطاجن نقلت الصنعة عن سرور أبو هاشم وعن سيد مخيمر وعن إبراهيم نافع، وتعلمت كيف أضع فى الطاجن الذى فى حجم طشت الغسيل كل ماتيسر فى المطبخ من لحوم ضانى، صدور فراخ أوراك أرانب بصل بحيرى بصل صعيدى قوطة بقدونس جرجير نعناع كرفس جزر زبدة ثم كمية البهارات. وشاهدنى ضيف إنجليزى وأنا أصنع الطاجن فقال للعبد الله: هذه أكله أسبانية شهيرة اسمها باهية قلت للإنجليزى الغلباوى معلوماتك نصفها صحيح ونصفها خطأ. الأكلة اشتهرت فى العالم باسمها الأسبانى «باهية» ولكنها فى الحقيقة أكلة عربية نقلها الأسبان عن العرب عندما

كانوا بالفعل لا بالكلام . . من صنف الأشاوس واسمها العربى الباقية . وكان العرب يصنعونها من بقايا الطعام بقايا لحم بقايا خضراوات بقايا بقول بقايا سمن بقايا بصل بقايا ثوم . ونقلها الأسبان عنهم ولكن لأن اللسان معوج فقد سموها باهية لأن نطق كلمة باقية تحتاج إلى لسان عربى محط من نسل قحطان! المهم أيها السادة أننى نزلت حتتك بتتك أكل طواجن عمال على بطال، طواجن لحم، طواجن أرانب، طواجن سمك، طواجن بصل أحيانا . كنت أنسى فأضع فى الطاجن فردة شراب قديمة أو قطعة من فوطة ممزقة . وتذكرت بالمناسبة قصة حصلت زمان وفى سنة ١٩٣٧ على وجه التحديد . وكان فى الجيزة واحد اسمه جعلص كان فى حجم الفيل الصغير وكان صاحب مسمط وهو أحسن مسمط فى تاريخ العرب، ومنذ أول مسمط افتتحه ابن السمينة فى بغداد أيام أبوجعفر المنصور. وكان يبيع أنجر الفتة بالكوارع بنص أفرنك وكان الأنجر إياه كفيلا بإشباع عائلة مكونة من عشرة أفراد . أما إذا كانت العائلة من النوع الذى يحب الفنجرة والفشخرة، فبوسعها دفع خمسة تعريفة لتشترى أنجر الفتة بالكوارع وفوق البيعة قطعة من الكرشة البتلو العال . فإذا كانت العائلة على شىء من البحبحة واليسار اشترت أنجر الفتة بالكوارع والكرشة ولحمة الرأس بثلاثة قروش صاغ، وتستطيع أيضا أن تحصل علاوة على ذلك على قصعة شربة من النوع الذى يرم العظام! وذات صباح، أو بمعنى أدق ذات ظهرية رحت أشترى منه أنجر فتة بالكوارع والكرشة ولحمة الرأس ووقفت انتظر دورى وكان أمامى واحد صعيدى ومعه طشت غسيل يريده مملوءا بالفتة مع الأرز وكوارع جملى من النوع الذى تأكله فتأخذ ديلك فى أسنانك وتسافر ريحا إلى الصعيد بدون حاجة إلى الحلزونة أو القطار. وبينما عمك جعلص يعبث بأصابعه فى الفتة لكى يخلط الرز بالمرق انتابته حالة كحة فراح يكح حتى تورمت

عيناه ثم قفز من فمه حتة بلغم فى حجم الضفدعة وسقطت فى الطشت ولكن هذه العملة المهببة لم تلفت نظر المعلم جعلص ولم يجد فيها شيئا يستدعى كب ما فى الطشت واستبداله بمرق جديد وخبز جديد وأرز جديد . وعندما احتج الصعيدى على حالة الاستهبال التى تمادى فيها المعلم جعلص أفرغ الطشت على رأسه . وتحمل الصعيدى الضربة الأولى وتراجع إلى الخلف خطوتين ثم تقدم إلى الأمام ونقر عم جعلص بالرأس بين حاجبيه فوقع عم جعلص على دست المرق وصرخ صرخة جلبت عشرات من الصياع وكانت عركة يشيب من هولها الغراب . أما محتويات مسمط المعلم جعلص فقد تناثرت على أرضية الشارع ، وأغرب شىء أن الذين اشتركوا فى المعركة جلسوا بعدها بعد أن جمعوا الحطام وراحوا يأكلون الفتة بالكوارع بلحمة الرأس مختلطة بالطين والتراب .

ولكن . . ما الذى جرنا إلى حديث جعلص والمعركة التى كانت أشد شراسة من معركة المدائن . آه . . إنه الطاجن اللعين الذى آن الآوان لكى نرفع القبعة عاليا ونقول له ولأمثاله وداعا للطواجن . ولكن ليه وكيف حدث ذلك؟

الحلبة، ولكنه لم يعد أبدا مثلما كان! ألعب مرة وأعتذر مرات، وأشترك مرة فى اللعب وأهنكر عدة مرات، ولكنى أبدا لا أعتزل ولا أريد أن أعترف بأن الوقت قد حان، وتشبثت بمكانى فى الحلقة أسد الطريق فى وجه الجيل الجديد القادم من الدبيغة والغيلان، ولكن مرة أخرى سقطت، وكانت السقطة هذه المرة عنيفة وعميقة، إلى درجة أنهم حملونى على محفة إلى الدكتور عبد المعز أكرمه الله ، وقال الطبيب العبقرى: لاشىء فى البطن، وإنما كل شىء فى الأعصاب. وسقونى دواء ووصفوا لى صيدليات ، وغرزوا فى جلدى إبرًا، واعتكفت، لا أقول اعتزلت ـ ثم عدت من جديد إلى الميدان! عدت أكثر شراسة وأكثر ضراوة ، عدت آكل من جديد كما كنت آكل وأنا طفل فى أول الطريق!

ولقد كنت دوما طفلا شقيا فى حجم الترانزستور، وكانت أمى تشبهنى دائما بالفرخة المضعونة ولم أجد لهذه الكلمة أثرا، ولا عند بيرم التونسى أستاذ اللغة العامية يرحمه الله. وكانت أمى شديدة الاندهاش لأن هذا الطفل الذى فى حجم الترانزستور يأكل كل هذه الهبر من اللحوم وكل هذه الكميات من الطعام.

وأخيرا أراحت أمى نفسها من مهمة البحث والتحرى، وآمنت بأن الأكل يذهب إلى ركبى ولا يذهب إلى معدتى. وكان الحق معها، لأننى كنت أتناول طعامى مثل أبو فصاد من الوضع قافزا، ومتشقلبا كالنسناس فى جبلاية القرود! المهم أننى عدت وأنا فى الخامسة والستين التهم طعامى كما كنت أفعل وأنا فى الخامسة والعشرين، عدت إلى الملاعب أقوى مما كنت وفى الفورمة كما يقولون، ولكن حدث انقلاب دمر حياتى ومزاجى وعكنن عيشتى وهبب أيامى ولونها بلون التراب، ألتهم الطعام، فتبدأ على الفور سيجارة كنج سايز مشتعلة تلدغ أمعائى فى دقة وفى نظام، أشرب ماء باردا فيبدأ وابور غاز مشتعل يهرى فى

هلكان، ورفض كل المحاولات لتركها، لأنها مكونة من ثلاثة مطابخ وبلكونة تطل على مطبخ الجيران!

ولكن ذلك كان زمان ومضى . . ومنذ سنوات مضت والعبد الله يحس بشعور عميق بأن الوقت قد حان للاعتزال، صحيح أننى مازلت ألعب على موائد الطعام، ولكنى ألعب على الموائد كما يلعب هشام يكن مع الشباب الآن، وكما يلعب جمال عبد الحميد مع فريق الزمالك!

أرتدى فانلة الأكل وأجلس على المائدة، وأشوط أحيانا لقمة هنا ولقمة هناك، وأجد أحيانا بعض المشجعين يهتفون باسمى وكأننى مايسترو كل المطاعم والأفراح ، أصبح العبد لله مثل أحمد ثروت المخرج ، مخرج لأنه يخرج، وليس مهما مايخرجه من أفلام تتحول إلى كوابيس فى الظلام. ولكن أستاذنا اللاعب الدولى القديم الخبير محمد رضا لاحظ الفتور الذى طرأ على العبد لله، فنصحنى بالاعتزال فترة أو التفرغ ومواصلة التدريب، وقال لى إن الشطة هى سر عياك وسر بلاك.

ولكن راسى وألف برطوشة ألا أعتزل، وأنا الذى أكلت مرة مع عبد الرحمن الخميسى خمسة أرطال كباب ودستة أرغفة وثلاثة أطباق طرشى بلدى، الطبق بقرش صاغ ، ثم انطلقنا لزيارة أحد الأصدقاء، فإذا به يتناول طعام العشاء، وعزم علينا فتلكأنا ، ثم تذبذبنا، ثم نزلنا على الطبلية ومسحنا كل ما قدمه لنا من أطباق الطعام. يالها من لحظة دامية باكية لحظة الاعتزال، صحيح ليس أقسى منها على نفس بطل دولى مثل العبد لله له فى دنيا المطابخ شأن وشنشان! ولكن عناد العبد الله كاد يؤدى بى إلى مقبرة الإمام الشافعى، فمنذ أسابيع هرست أمعائى يد غليظة وقاسية وراحت تلويها بلا شفقة أو حنان، ودخت دوخة الأرملة على أبواب الأطباء، وسقانى كل منهم رشفة من زجاجة وكتب لى كل منهم روشتة ، وغرز كل منهم فى جلدى إبرة، وبعد أسابيع عاد البطل إلى

الحلبة، ولكنه لم يعد أبدا مثلما كان! ألعب مرة وأعتذر مرات، وأشترك مرة فى اللعب وأهنكر عدة مرات، ولكنى أبدا لا أعتزل ولا أريد أن أعترف بأن الوقت قد حان، وتشبثت بمكانى فى الحلقة أسد الطريق فى وجه الجيل الجديد القادم من الدبيغة والغيلان، ولكن مرة أخرى سقطت، وكانت السقطة هذه المرة عنيفة وعميقة، إلى درجة أنهم حملونى على محفة إلى الدكتور عبد المعز أكرمه الله ، وقال الطبيب العبقرى: لاشىء فى البطن، وإنما كل شىء فى الأعصاب. وسقونى دواء ووصفوا لى صيدليات ، وغرزوا فى جلدى إبرًا، واعتكفت، لا أقول اعتزلت ـ ثم عدت من جديد إلى الميدان! عدت أكثر شراسة وأكثر ضراوة ، عدت آكل من جديد كما كنت آكل وأنا طفل فى أول الطريق!

ولقد كنت دوما طفلا شقيا فى حجم الترانزستور، وكانت أمى تشبهنى دائما بالفرخة المضعونة ولم أجد لهذه الكلمة أثرا، ولا عند بيرم التونسى أستاذ اللغة العامية يرحمه الله. وكانت أمى شديدة الاندهاش لأن هذا الطفل الذى فى حجم الترانزستور يأكل كل هذه الهبر من اللحوم وكل هذه الكميات من الطعام.

وأخيرا أراحت أمى نفسها من مهمة البحث والتحرى، وآمنت بأن الأكل يذهب إلى ركبى ولا يذهب إلى معدتى. وكان الحق معها، لأننى كنت أتناول طعامى مثل أبو فصاد من الوضع قافزا، ومتشقلبا كالنسناس فى جبلاية القرود! المهم أننى عدت وأنا فى الخامسة والستين التهم طعامى كما كنت أفعل وأنا فى الخامسة والعشرين، عدت إلى الملاعب أقوى مما كنت وفى الفورمة كما يقولون، ولكن حدث انقلاب دمر حياتى ومزاجى وعكنن عيشتى وهبب أيامى ولونها بلون التراب، ألتهم الطعام، فتبدأ على الفور سيجارة كنج سايز مشتعلة تلدغ أمعائى فى دقة وفى نظام، أشرب ماء باردا فيبدأ وابور غاز مشتعل يهرى فى

مصاريني ويفرى فيها حتى تصبح عجينة ينقصها حبة سكر وحتة سمنة بلدى لتصبح وصفة تذيعها الست الخبيرة فى برنامج ركن المطبخ فى الإذاعة والتليفزيون، وشكوت لطوب الأرض، وكل طوبة أشكو لها تتحول إلى دكتور ولا العبقرى أنور المفتى يرحمه الله ، ولكن طوبة من إياهم . . أقصد دكتورا من إياهم، هو رسام الكاريكاتير المعروف أحمد طوغان، بعد أن نظر إلى وجهى وجس نبضى، قال للعبد الله: اذهب إلى الريف عدة أيام وستعود معافى سليما بإذن الله. وذهبت إلى عزبة الصديق الحاج إبراهيم نافع، وعلى الأرض جلسنا كما كان يفعل صهيون، الفرق الوحيد بينى وبين صهيون أنه كان يجلس على الأرض ويبكى أورشليم، وأنا جلست على الأرض وبكيت مصرانى الغليظ. ويبدو أن صهيون كان مريضا مثلى ببطنه، ولذلك كان كثير الجلوس على الأرض كثير النهنهة والبكاء! المهم أننى والحاج إبراهيم على الأرض جلسنا، وأقدامنا فى الترعة دلدلنا وقصعة فتة بالسمن البلدى لهفنا، وثلاثة أزواج فراخ بلدى مصمصنا، وشيشة عجمى بالمعسل ولعنا، وشاى أسود كالحبر شربنا، وشعرت بالراحة كما لم أشعر بها من قبل، بطنى انتفخت وركبى سابت وأعصابى ارتخت، وجميع مفاصلى ترخرخت، وكأنها كانت مشبوكة كلها بمفاصل وانخلعت مرة واحدة بسبب دانة مدفع أطلقتها قطعة من قطع الأسطول السادس فى المليان . . وفجأة أظلمت الدنيا فى عينى ووقعت على الأرض، وجهى أبيض من الشمع وحرارتى تصلح للخبيز والطبخ، واستنجدنا بطبيب يبدو أنه كان يعمل فى ورشة ميكانيكى ثم تحول إلى طبيب فى حركة ترقيات!

جس الطبيب الميكانيكى بطنى وقال: عندك التهاب فى الكبد. ووجدت نفسى أموت بلا عزرائيل، فأنا أخاف التهاب الكبد، كما أخاف السرطان والذبحة الصدرية والسكتة القلبية وكافة شىء يذهب

بالإنسان إلى قرافة الإمام . والعبد لله يخاف الموت ـ أستغفر الله ـ وأكرهه ، ولكنى لا أدرى لماذا استسلمت هذه المرة فقط . . طلبت من الله مهلة حتى أتوب عن الأكل بلحسة عسل فى الصباح وشريحة طماطم فى الظهر ولحسة مربة فى المساء . ياللهول . . على رأى عمنا يوسف وهبى ، لم يعد أمام العبد الله خيار . . الاعتزال . . أو الموت الزؤام! حكم من محكمة القضاء والقدر المشمول بالنفاذ. وأنا متهم بالخيانة ، وتهمتى أننى تعاونت على مدى ستين عاما مع هيئات ضد البشرية اسمها المطاعم ، ومع مجرمى حرب اسمهم « الطباخين» ، وأننى حشرت فى أمعائى قطيعا من الحيوانات خلال المدة التى عشتها على الأرض تكفى غابة من غابات أفريقيا . وأننى شربت مية طرشى تكفى لقتل عدة أجيال . وقد حانت اللحظة لألقى مصيرى كمجرم حياة . وألحق بأخى وشقيقى ورفيقى مجرم الحرب المارشال جورنج يرحمه الله . ونمت على سريرى فى هدوء وفى نيتى أن أعتزل ، ثم حملت شنطتى على كاهلى ورحلت إلى الغردقة ، والعبد لله لم يشاهد الغردقة منذ ثلاثين عاما ، واكتشفت عندما عدت إليها أننى تغيرت وهى أيضا تغيرت ، أصبحت مدينة وأصبحت جلدا على عظم ، أنا مريض فى الغردقة شهيد البامية المسلوقة والمية من الحنفية ، ألتهم كل يوم عشر حبات فبرامايسين «وأنتتركس» وأنتوسيد وملعقة عسل نحل على غيار الريق ، وأنا ـ وحق الفلفل المخلل ـ لم أذق طعم العسل النحل فى حياتى إلا فى الغردقة ، أنا ـ وشرف الحاج عبد العال الطرشجى ـ لم أتذوق طعم الأرز فى حياتى ولا أعرف طعم المكرونة ، ولم أقترب مرة واحدة من الحلوى الشامية أو الحلوى المسقطية ، ولم يكن طعامى إلا اللحم واللحم فقط ، ولكن . . ما أغرب الحياة ، فأنا طول عمرى وجهى أصفر دبلان كالليمونة المخللة ، طول عمرى زهقان كأننى مريض طالت إقامته فى مستشفى القصر العينى ، ولكن وجهى بفضل البامية

المسلوقة أصبح أحمر من قماش القطيفة، وأنهض الآن من فراشى كأننى غراب نوحى يهم بالطيران على شاطئ النيل، أنا مبسوط الآن كأننى صعيدى كسب البريمو! شيء واحد فقط كان يؤرقنى ويعذبنى ويكاد يدمر حياتى.. وهو الكتكوت، فأنا موصوف لى كتكوت كل يوم، ولكنه كتكوت ولا كل الكتاكيت، كتكوت أصفر هزيل كان قبل ذبحه يعانى من التهاب المصارين، وأحيانا أعثر فى جوفه على حبوب الأنتوسيد والفبرامايسين، ويخيل إلى أحيانا وأنا أنظر إلى الكتكوت أن العبد لله هو الموصوف له وليس هو الموصوف لى! وحكمة الله أننى منذ ثلاثين عاما ـ أيام الصياعة والصحة الحديد ـ كنت أهزأ من كل مريض يشكو من أكل المسلوق، وكنت أندهش من كل مريض يأنف من أكل الكتكوت، فمن ذا الذى يرفض أكل الكتكوت! ولو كان هزيلا أو مسلوقا أو حتى ميتا منذ زمن بعيد.

مأساة ورب الكعبة أننى أفنيت عمرى كله لكى أصل إلى حالة تسمح لى بالاستمتاع بالطعام الذى أتمناه، فلما توفرت ألوان الطعام التى أعشقها، كان المشوار قد برى جسدى وهد قواى. لم أدرك إلّا الآن أننى خلال الصراع العنيف مع الحياة خسرت أهم أسلحتى وهى المعدة التى تهضم الزلط والصحة التمام! وعندما انجلت المعركة كانت الغنائم المطروحة على الأرض لا تساوى شيئا فى سوق الحياة، غنائم كثيرة أشكر الله عليها، ولكنى مستعد أن أقايض بها من يشاء مقابل صياعة زمان ومعدة زمان.

وفى البداية تصورت أنها مجرد وقعة مثل وقعات سبقتها ونجوت منها بإذن الله. ولكن آه من القدر إذا عاند، وآه من الحظ إذا انكسر. نصحنى الدكتور عبد المعز ومعه الدكتور مازن نجا أن أقوم بإجراء تحليلات كاملة وشاملة لمعرفة أسباب الداء وحتى يمكن وصف الدواء. والعبد لله يكره

التردد على عيادات الأطباء، ويكره الانتظار فى استراحات المستشفيات، ولكن ما باليد حيلة، وليس من إجراء التحاليل مفر خصوصا وأن آخر مرة أجريت فيها فحوصات طبية كانت منذ عشر سنوات واقنعنى صديق وقتها بضرورة إجراء فحص عام، وليتنى مافعلت.

كانت وجهة نظر صديقى أنه لابد من عمل الفحوصات بعد هذه الدوخة التى امتدت عشر سنوات فى بلاد الله، غريبا كالطير المهاجر، جريحا كالكلب الهزيل، حزينا كفلاح منعوه فى المطار من السفر إلى الكويت. وذهبت إلى مستشفى «المقاولون» العرب وأجريت كل الفحوصات المطلوبة، ثم جاءت النتيجة . . الدم لاغبار عليه، القلب لا بأس به، الكبد على مايرام، الكلية آخر تمام، المخ آخر انضباط، ولكن جاءت صور أشعة الصدر، وألقى الطبيب نظرة أولى ثم نظرة ثانية، ثم نظرة ثالثة، ثم نظرة رابعة، ثم مط شفتيه، ثم أرعش حاجبيه، ثم قال: لديك ورم فى الرئة ولابد من جراحة عاجلة . . سألته عما يقصد بالورم فأجاب ببساطة شديدة: سرطان بالطبع! ولكن لأن العملية تحتاج إلى مزيد من الفحوص ومزيد من الاختبارات، فقد أمهلنى إلى اليوم التالى، لكى يتعرف على تاريخ المرض وبدايته ومدى تغلغله وما يجب على الطبيب أن يفعله من أجل استئصاله . . ولا أدرى كيف قضيت الليلة حتى وصلت إلى المستشفى فى الصباح ولكنى ذهبت، ودخلت مع الطبيب فى معركة ولامعركة أبو زيد الهلالى مع دياب بن غانم.

ولكن هذه حكاية أخرى . .

مرحبًا مصر المسلوق

لا أعرف كيف وصلت إلى المستشفى فى صباح اليوم التالى، لكن ما أعرفه أننى قضيت الليل ساهراً مع الحاج إبراهيم نافع وبعض الأصدقاء كانوا يتكلمون ولكنى لم أسمع حرفاً واحداً مما قالوه. وكنت مبصراً ولكنى لم أر شيئاً على الإطلاق . وكنت حياً بشهادة الشهودة ولكنى فى الحقيقة كنت مجرد جثة تنتظر الدفن.

ياله من إحساس رهيب يشعر به المحكوم عليه بالإعدام وهو فى طريقه إلى تنفيذ الحكم. رحت أستعرض حياتى وماحفلت به من أيام سعيدة وأيام زى الزفت. حبة فوق وحبة تحت على رأى حكيم هذا الزمان . . أحمد عدوية! كنت فى تلك اللحظة فى السابعة والخمسين من العمر. وكنت خارجاً من معركة أشد شراسة من معركة العلمين. عشر سنوات صياعة وضياعة ودوخة عند اللى يسوى واللى مايسواش.

عشر سنوات منها ست سنوات فى العراق، بينما أجهزة الإعلام فى القاهرة تؤكد أننا نقيم فى ليبيا !! حتى المعلومات لم تعد متوفرة عند الأجهزة فى مصر. وأشهد الله على ما أقول وكيل أن العراق به شعب عربى طيب وعنده حزب أجارك الله . حزب السحل العراقى يضم خمسة ملايين مخبر مهمتهم الوحيدة هى الإبلاغ عن كل شاردة وواردة فى العراق. وإذا كان الجيش العراقى قد غزا الكويت. فجيش المخبرين غزا العراق منذ عام ١٩٦٨ وحتى الآن . وبعض المخبرين يخبرون بمزاجهم وبعضهم يخبر رغم أنفه وعلى غير هواه . كنت أعرف مخبراً من هؤلاء،

كان يلازم العبد لله كجزء من مهمته، ولكنه فى ساعات صفوة وبعد أن يأكل ويشرب يقول كلاماً يكفى لسحله فى شارع الرشيد . وكان منظر المخبر وهو يأكل يفرح القلب ويسر الفؤاد. كان يأكل سمكة من السمك (المسجوف) طولها طول بنى آدم وعرضها عرض القماش الإنجليزى الممتاز. ويأكل معها عشر صوابع كفتة طول الصابع وحجمه الخالق الناطق صباع موز مغربى عال العال. ويأكل إلى جانب ذلك صحن كبة وفوق البيعة صينية تضم تشكيلة من الخس والجرجير والبصل الأخضر والطماطم والخيار ونوع آخر من الخضراوات اسمه الرشاد.

والشعب العراقى أكيل وكريم وشهم، ولكن أكلهم يختلف تماماً عن أكل المصريين. لم أشاهد على مائدة أى عراقى صحون طبيخ من النوع الذى نعرفه. صحون الكوسة والسبانخ والملوخية يسمونها مرق، أما الطعام الحقيقى فهو النوع الصلب المصمت الذى يشبه الحجر. كبة نية، كبة محمرة، دجاج، خروف محشى، رأس غنم أو رأس ثور ويسمونها الباجا، مصارين الذبيحة والحلويات اسمها المعلاج. وكانوا يبدون دهشتهم لأن المصريين لايأكلون إلا المرق. ويبدو أن المطعم العراقى يقوم أساسا على هذا الأكل الحجر. والدليل على ذلك أن الخليفة هارون الرشيد مات شاباً فى الخامسة والأربعين ومات بسبب الزحار. . وهو الإسهال الشديد. وكان أستاذنا فى الدبغ عمنا هارون الرشيد يتناول طعامه على مائدتين ، مائدة للطعام ومائدة للمهضمات، وكان بطيناً. . يعنى كرشه قدامه، وكان يمشى الهوينا ـ كما قال الشاعر ـ مشى الوجى الوحل!!

والفرق بين الأكل المصرى والأكل العراقى ، ليس فرقاً فى الأصناف والألوان فقط، ولكنه فرق رهيب وخطير ويحمل دلالات شديدة الأهمية. فالمصرى يكفيه أى شىء، وهو فى النهاية يأكل مرقاً. . أى شوربة ،

والشوربة فى حقيقتها مجرد ماء مخلوط بشىء، قد تكون أعشاباً وقد تكون لحما، لأن المصرى يأكل ليشبع معدته، بينما العراقى يأكل ليشبع مزاجه. المصرى يمكنه الصبر على المكاره، ويأكل العيش الجاف ويطبع قبلة على يده ظهراً وبطناً ويحمد الله على ذلك. ولكن آه.. لو حرمت العراقى من خبز التنور ومن العجين باللحم، ومن الباجا والسمك المسجوف. آه لو غاب عن مائدته طبق الزلاطة، ولو حرم من قزقزة اللبلبى،. ومن أكل الأجاص و(علابالو) والرجى (البطيخ) والبطيخ (الشمام).

والعراقى إذا أكل يدخل معركة ولامعركة البسوس، وهو يأكل بفمه وبعينيه، يتناول اللقمة ويحشرها فى فمه، ثم يغرز الشوكة فى اللقمة الجديدة، ويرفع الشوكة ويظل يرمقها بعينيه بشوق وبحنان وبحب.. وكأنها ليلى العامرية وهو قيس بن الملوح!

وياسلام على منظر العراقى وهو يشفط استكانة الشاى بعد الأكل، وهو لايكتفى باستكانة واحدة ولكنه يشرب عدة استكانات.. ولابد أن تكون بالنعناع. وإذا كان المصرى يقنع بكوب شاى واحد فى كل مرة يتاح له فيها شرب الشاى، فلا أقل للعراقى من براد كامل، يظل يشرب منه استكانة بعد استكانة، فإذا كان ميسر الحال، حملوا الفارغ وأتوا بالمليان!

وماينطبق على العراقى ينطبق على الشامى. والشامى هو الذى يقيم فى المساحة الممتدة من غزة إلى الموصل. الأكل عند الشوام متعة وليس مجرد مهمة يقوم بها الإنسان بهدف البقاء على قيد الحياة. ولذلك أيضا يندهش أهل الشام عندما يجدوننا نأكل الملوخية ونقدمها كطبق رئيسى على مائدة الغداء.

دعوت أديبا عراقيا على الغداء، فلما رأى الملوخية على المائدة صاح مستنكرا: نأكل شوربة!؟ وقلت للأديب العراقى: نحن نأكل الشوربة ونعيش عليها أغلب الوقت ومنذ عصر الحاكم بأمر الله!

أذكر أيضا أنني ذهبت مع صحفى لبنانى صديق لنأكل لقمة عند حاتى عراقى بشارع الرشيد لديه عربة يد . . ولكن صنعة يديه كانت أفضل من أفخر محل كباب فى بغداد. كان الزحام على أشده حول عربة الكباب، وكان أغلب الزبائن تفوح منهم رائحة «العرقى» وهو الشراب المفضل لدى السواد الأعظم من شعب العراق. وكان شيش الكباب. . . أو سيخ الكباب بالمصرى بخمسة قروش عراقية، ولكن أقل طلبية لأقل زبون كانت عشرين شيش كباب . ولكن الذى جعلنى أكاد آخذ ذيلى فى أسنانى وأهرب من المكان . أن البعض كان يطلب عشرين شيش لحم، والبعض الآخر عشرين شيش شحم. هل تعرف الشحم؟ إنها لية الخروف مقطعة بالسكين على هيئة مكعبات صغيرة. العبد لله شخصيا لو أكل مكعبا واحدا من دول لانتقل فورا إلى قرافة الإمام الشافعى!

أذكر أيضا أننى استعنت ببعض العمال لإصلاح الحمام . فطرقوا بابى فى السادسة صباحا وبدءوا العمل . كانت المجموعة مكونة من عاملين ومباشر، ويبدو أن هذا المباشر هو المقاول فى نفس الوقت. وفى الحادية عشرة تماما توقف العمل، وتصورت أنهم غضبوا من شىء، أو أنهم صادفوا عقبات فى الحمام . ولكنى اكتشفت أن موعد الغداء قد حل!

نصبت لهم ترابيزة فى الحديقة وعزمت عليهم بأكل مصرى ولكنهم رفضوا شاكرين. ثم أرسلوا أحدهم فعاد بستين شيش كباب وبعشرين شيش شحم، وبثلاثة معلاج. . كل معلاج يزن كيلو ونص، وجاء بشوال طماطم وبصل ورشاد وفاكهة عدة أصناف ورصة عيش من خبز التنور ! وطلبوا الماء والشاى بعد الأكل.

وآه من الأكل وسيرة الأكل أيها الأحبة والخلان، أخذنا حديث الأكل

بعيدا عن الموضوع الذى بدأناه . كان حديثنا عن السرطان الذى اكتشفه الطبيب الغبى فى صدرى، ولكنى عندما ذهبت إلى المستشفى فى صباح اليوم التالى طمأننى فنى الأشعة، وقال: عندك شىء ولكن ليس سرطان، ووصف طبيبه بأنه حمار يرتدى بالطو أبيض. والتقط الفنى عدة صور بجهاز الأشعة، ثم ذهب بالفيلم ودخل حجرة جانبية ، وغاب داخلها فترة ثم جاء بعد قليل ومعه طبيب شاب. وابتسم الطبيب وقال للعبد لله : مبروك. . . مبروك على إيه ؟ قال الطبيب: الحمد لله ليس عندك شىء على الإطلاق.

ثم قال بود شديد: تسمح تفك زراير القميص. وعندما أصبح صدرى عاريا هتف مسرورا: هى دى. . . الحمد لله !

أما إيه هيه اللى دى؟ فهى حسنة كبيرة أعلى صدرى من الناحية اليمين، حسنة فى حجم حبة الفراولة إياها بتاعة هذه الأيام. . . مجعلصة وماسخة، ولم أدر ماذا فعلت، شتمت الطبيب الكبير ، ولعنت خاش المستشفى، وعدت أجرجر قدمىَّ إلى البيت، وسقطت طريح الفراش لمدة شهر كامل . . عافت نفسى الطعام والشراب، وكرهت الخروج من البيت، وخرجت من الأزمة بقرار نفذته بحسم . . . وهو ألا أدخل مستشفى بعد اليوم.

وبعد أن تجاوزت سن المعاش جاء على العبد لله حين من الدهر اعتقدت فيه أننى نجوت بفضل الله من مصيدة المرض. واعتقدت أننى سأعيش مثل جدى الشيخ خليل إلى سن المائة والعشرين. ولكن لعنة الله على المصران الغليظ آلمنى بشدة واستعصى على الشفاء. وشهر كامل وأنا أتعاطى جميع السفوف والحبوب من أول المضادات الحيوية وإلى السبازمو كاليناز. ونصحنى الدكتور عبد المعز بضرورة إجراء تحليل . . .

وبالمرة تحليل شامل كامل لنعرف حقيقة الأمر .

وترددت كما هى العادة ، ولكن عمنا حسن أبو باشا مر على العبد لله فى البيت فانكسفت ، وذهبت معه إلى مستشفى النيل بدراوى ، وأقنعنى الدكتور حسام بدراوى بضرورة إجراء جميع التحاليل المطلوبة . . . ومش هنخسر حاجة . . . وأيضا لكى نعرف إيه المطلوب .

واستسلم العبد لله . ولم أكن أعلم أنها ستكون نهاية عصر الطواجن وأننا على أبواب عصر المسلوق .

اقبض .. وابدأ الحياة !

مسلوق ! ولمن؟ للعبد لله ؟ أنا الذى كنت أشم رائحة الملوخية المطبوخة فى الإسكندرية وأنا فى القاهرة فأرقص عشرة بلدى ولا رقصة تحية كاريوكا فى سالف العصر والأوان . أنا الذى رأيت الشيخ عبد الحميد قطامش يبكى ـ ولا الخنساء تبكى أخاها صخرا ـ وهو عاكم بأضراسه فخذ لحمة ضانى بلدى فى بيت مدحت عاصم ، فلما انتهينا من العشاء وبدأ مدحت عاصم يعزف السيمفونية الخامسة ، ارتفع شخير عمنا قطامش إلى السماء . الغريب أن عمنا قطامش كان نموذجا للأزهرى الذى عاش فى حوارى حى الحسين حتى تخرج من الأزهر ، وكل أحلامه أن يعثر على بئر لحمة ولا يرضى عنه بديلا ولو مائة بئر بترول .

ومنذ عصر محمد على وحتى يومنا هذا أصبح للأزهريين خاصية لايشاركهم فيها أحد . يتخرج الأزهرى حاملا شهادة العالمية وهو أنحف من عبد السلام محمد ، فإذا توظف وقبض وأكل الأرز والفتة باللحمة أصبح فى حجم المرحوم فتلة . والسبب أيها السادة أنه قبل محمد على باشا الكبير كان التعليم الأزهرى هو التعليم الوحيد المتاح أمام المصريين ، وكان وقفا على أبناء الأسر الريفية الثرية المفترية وأبناء العمد والأعيان إلى جانب استثناءات لابد من وجودها من أبناء الطبقة الفقيرة خصوصا أصحاب العاهات ولأن صاحب العاهة الفقير لن يفيد أسرته ولن يفيد نفسه إلا إذا تعلم . أما الفقراء الأصحاء ففى الحقول متسع لهم . ولذلك . . عندما قامت ثورة القاهرة الأولى ضد الجيش الفرنساوى بقيادة

نابليون تولى قيادتها علماء الأزهر ، فلما انتكست الثورة وقبض على زعمائها ، أعدمهم الفرنسيون فجرا بالقلعة ودفنوهم فى قبور مجهولة ولم نعلم عنهم شيئا إلا من يوميات عمنا الجبرتى ، وإذا بتسعين فى المائة منهم على الأقل كانوا من أبناء الأسر الريفية الثرية ، وقلة قليلة من أبناء تجار المدن الأغنياء ، وعدة أفراد أقل من عدد أصابع اليد الواحدة كانوا من آحاد الناس ولكن بعد أن تولى محمد على حكم مصر، وبدأ فى إرسال البعثات إلى فرنسا ، كانت هذه اشارة لأصحاب الطين بأن التعليم خارج الحدود هو الطريق إلى السلطة والنفوذ. وبدأت المراكب تشحن أبناء الصفوة إلى أوروبا ، وبعد عشرين عاما أو ربما ربع قرن أصبح الحكم وقفا على خريجى جامعات الغرب .

لأن أحوال الفلاحين الفقراء كانت أفضل فى عهد أسرة محمد على عنها فى أيام المماليك فقد اتجهوا إلى تعليم أبنائهم فى الأزهر. يرسلون ابنهم إلى القاهرة ليواصل تعليمه وليس معه إلا قفة عيش وزلعة مخلل وبقوشة سمن ، وبلاص جبنة وريال فضة. وبهذا الزاد عليه أن يواجه الحياة لمدة عشرين عاما حتى يحصل على العالمية!

ولايستطيع عبقرى مهما كانت قوة خياله أن يصل إلى حقيقة المعاناة التى تحملها أبناء الأزهر فى عصر الأسرة العلوية ، كل خمسة فى حجرة وأحيانا كل عشرة. والمأكول طعمية من الحلوجي وطرشى من عند أبو سعدية ، وعيش سخن من الفرن كل أربعة أرغفة بقرش فى الصباح وكل ثمانية بقرش بعد الظهر . غداء أقل مما تقدمه الحكومة للمسجون ، بالإضافة إلى علوم على الطالب أن يحفظها عن ظهر قلب . أما الفسحة فهى التجول حول ضريح سيدنا الحسين ، وقضاء بعض الوقت فى صحن الأزهر. أما العودة إلى مسقط الرأس فهى مستحيلة إذا كانت القرية بعيدة . أما إذا كانت على بعد ثلاثين كيلو متر . فياصلاة الزين

على الرياضة الإجبارية ولا بأس من قطع الطريق كعابى إلى حيث الأم المنتظرة على مايشبه الجمر عودة ابنها الشيخ!

حدثنى عمنا الشيخ قطامش عن رحلته ذات عام إلى مسقط رأسه فى قرية المنصورية بالجيزة على بعد ثلاثين كيلومترا من حى الأزهر .. ارتدى الفانلة أم كم طويل والسروال الذى يغطى الساقين ، وشرابا مصنوعا من خيش هندى وحذاء يعلم الله كم مضى من السنين على عمره الافتراضى. وخرج الشيخ قطامش من القاهرة مع صلاة الفجر حاملا على كتفه بقجة فيها بقايا هدوم وبقايا طعام وبقايا ورق وبقايا كتب، وهات يامارش شمال يمين عابرا القاهرة إلى إمبابة إلى الوراق إلى المنصورية وعندما دخل القرية كانت الدنيا ليلا، وسيمفونية مزيكة من فرقة ضفادع تملأ الفضاء، وصراخ أم قويق يشق قلب الليل. وعندما دخل الشيخ قطامش بيت العائلة ارتمى على صدر أمه أولا ثم جلس على الحصيرة يخلع ملابسه وعندما خلع الحذاء كانت المفاجأة مذهلة .. لم يجد الشراب فى قدميه! أين اختفى؟ أين ذهب ؟ كيف انخلع من قدميه؟ مع أنه لم يخلع الحذاء فى أى وقت!

ولكن دوخة طلبة الأزهر فى الفترة الممتدة من عصر محمد على إلى عصر الملك فاروق لا يكفيها مقال هنا أو مقال هناك، إنها تحتاج إلى مجلد ضخم قد تنتهى صفحاته قبل أن نستعرض السبع دوخات التى تعرض لها الأزهريون على مدى ١٥٠ عاما على الأقل، وهى فترة طويلة بالنسبة للإنسان الفرد ولكنها قصيرة بالنسبة لأعظم وأقدم جامعة فى العالم وليس تعصبا للأزهر .. ولكنها حقيقة لاتقبل الجدل لأن الأزهر هو وحده الذى حفظ اللغة العربية فى مصر وحفظ لها دينها وأخرج لها زعماءها وقادتها ورموز حضارتها. صحيح أن الأزهر من نتاج الدولة الفاطمية وكان الهدف من تأسيسه أن يكون معهدا لعلوم الشيعة، ولكنه كان

معهدا إسلاميا على كل حال وكان يوفر لطلبته أحدث علوم العصر وفتح أمامهم باب الاجتهاد وقدم للعالم الإسلامى الألوف من الدعاة فى فقه الدين وأصوله!

ونعود إلى العم قطامش الذى وصل إلى بيت والدته فى المساء وسألها بلهفة شديدة: طابخة إيه يامه؟ وجاءت الإجابة: رز بلبن يابنى!! وهل هذا طبيخ؟ نعم طبيخ الفقراء المصريين الذين حفظوا أنفسهم من الانقراض بطرق شتى وتحملوا من أجل ذلك مالايستطيع أن يتحمله العفاريت. ولكن قطامش المسكين الذى صار ثريا وألمعيا اضطر إلى العودة إلى مشنة العيش الجاف والجبنة القريش بسبب مرض السكر. نفس الشيء الذى حدث للعندليب عبد الحليم حافظ يرحمه الله، عرفته وهو ولد يتيم خريج ملجأ الأيتام الذى تخرج منه الشاعر العبقرى فؤاد نجم الشهير بالفاجومى، وكان يشبع طقة ويجوع عدة طقات فلما أقبلت عليه الدنيا ودانت له الأيام أصبح الأكل بالنسبه له حراما حرمة الميتة والدم بالنسبة للمؤمنين من عباد الرحمن . كنت عنده ذات يوم واستبقانى على الغداء، ولم يكن الغداء إلا مية من الحنفية تعوم فيها بعض شرائح الكوسة وصرخت فى وجهه: ياسبحان الله محكوم عليك بالفقر إلى آخر يوم من أيام الحياة، كأنك قطار سكة حديد يجر وراءه سبنسة جوع لاتفارقه ولا ينفصل عنها لأى سبب من الأسباب!

ورأيت الشيخ كامل أبو العينين ـ رحمه الله ـ وهو جالس على المائدة العامرة لايفتح فمه بكلمة واحدة، وكيف يفتحه وهو مشغول بالقضم واللهط والزغط والبلع والهضم أيضا. ثم رأيته على نفس المائدة وهو يخاطب ألوان الطعام باحترام وكأنه يخاطب الإمام الأعظم أبا حنيفة فى مجلسه ببغداد. لم يكن يستطيع أن يمد يده على الطعام، ولم يكن يستطيع أن يحتمل الموقف، فاخترع حكاية الحوار مع الأطعمة حوارًا حارا

ومثيرا ولامعا لوسجله الشيخ كامل أبو العينين لكسبت المكتبة العربية لونا فريدا فى الأدب . . هو أدب الطعام. الغريب أن أبناء الأزهر القادمين من الريف يبدءون حياتهم أنحف من عبد السلام محمد ثم يصبحون مثل الممثل محمد متولى بعد القبض واللهط، ثم يعودون بعد الخامسة والأربعين إلى حجم أحمد بدير، فالأكل يورث السكر، والسكر يورث الضعف.

الأزهرى الوحيد الذى أصابه الهزال بعد التوظف هو الشيخ عبد الوارث الدسوقى بالرغم من أنه انتقل من أكل السريس والجعضيض إلى أكل المشمر والمحمر، وحالة الشيخ عبد الوارث تثبت أن الأكل وحده ليس هو صاحب الفضل فى بناء الأجسام ولكن الأكل يحتاج إلى معدة تهضم الزلط وجلد سميك لايهتم إلاّ بالأحوال الخاصة ولايشغل باله بأحوال الآخرين: ولكن الشيخ عبد الوارث كان من فصيلة أبناء الأزهر قبل عصر محمد على، الذين قادوا الثورة ضد المحتل الفرنساوى وأنزلوا به خسائر جمة وأثخنوه بالجراح واستشهدوا جميعا رميا بالرصاص ودفنوا فى قبور مجهولة، ولو كان هذا النوع من الأزهريين موجودا فى عصر الأسرة العلوية لتغير بالتأكيد تاريخ العرب، وإذا كان عبد الناصر هو زعيم العرب وقائد المسيرة القومية فإن مبعوثيه إلى العالم العربى لتعليم الصغار قواعد اللغة العربية فى المدارس كانوا السبب فى موقف العداء الذى اتخذته هذه الشعوب ضد القاهرة ، كانوا يبحثون عن معيشة رخيصة لادخار أكبر مبلغ من أجل الحصول على قطعة أرض لبناء دار جديدة على حرف الترعة فى القرية، ثم بعد ذلك لا بأس من الحصول على أرض زراعية ليصبح السيد المدرس من الملاك، لم يفتحوا بيوتهم لأهل البلاد ولم يقيموا علاقات حقيقية مع الناس. ولم يكن الذنب ذنب هؤلاء المبعوثين ولكنه كان ذنب نظام التعليم فى الأزهر: لقد كانت غاية التعليم فى

الأزهر هى حفظ العلوم وترديدها . وكان الكم هائلا لدرجة أنه لم يترك فرصة لأحد للتفكير فى شئون الحياة والكون . ولعل هذا هو السبب أيضا الذى دفع ببعض العلماء إلى العمل مع شركات توظيف الأموال! هؤلاء العلماء أنفسهم هم الذين انتقلوا من القاهرة بعد خراب هذه الشركات للاشتراك فى ندوات دينية فى تليفزيون دبى، حيث يجلسون كالطلبة المبتدئين أمام مذيع من أهل البلاد متعالم يلقى عليهم دروسا فى فقه الإسلام ! وقديما قال الرسول : المعدة هى بيت الداء. وهى بيت الداء فعلا ، داء المرض، وداء الطمع وداء اللهفة على التكويش والاكتناز!

ولكن ما أبعد الفرق بين أكيلة الطعام وأكيلة الحرام. وكان الشيخ أمين مجاهد من أكيلة الطعام، كان يغمى عليه إذا وقع بصره على حلة محشى كرنب وكان يرى أن المحشى كرنب هو أرقى مراحل الطعام. وفى الخمسينيات من هذا القرن وعندما نشبت المعركة بين الأدباء والنقاد حول الأدب وهل الأدب للأدب؛ أم الأدب للحياة؟ أجاب أمين مجاهد على السؤال بأن الأدب للطعام! وهو قول صحيح للغاية لأن أدب الطعام له وجود فى بلدنا وفى تاريخنا وذاع أمره واشتهر فى العصر الفاطمى، ثم أصبح هو الأدب الوحيد فى العصر المملوكى حيث كان الحاكم أعجميا لايفهم لغة العرب، وأغلب المسئولين أعاجم من خارج الحدود، من جورجيا وابخازيا مرورا بالبوسنة والهرسك، قدوما على تركيا وإيران وصولا لمالطة وممتدا إلى شواطئ التكرون ـ لامؤاخذة ـ هو ساحل الزنج الممتد على شاطئ المحيط الأطلسى ومن ساحل العاج وإلى ساحل الذهب، وسكانه هم التكارنة وكانوا يشتغلون عبيدا لدى الحكام، وكانوا يسكنون منطقة بولاق فأصبح اسمها بولاق التكرون، ثم حرفها العامة فى مصر فصار اسمها بولاق الدكرور!

المهم فى ذلك الوقت بالذات كان الطعام هو الشغل الشاغل للأدباء

والشعراء وحتى الشعراء أنفسهم كانت أسماؤهم تنسب إلى الطعام الشاعر الزيات والشاعر الجزار والشاعر السمان ـ نسبة للسمنة ـ وكان أشهرهم هو الشاعر الجزار وله مقولة ذهبت مثلا . عندما سأله أحدهم عن الفرق بين الشعر والجزارة فقال : عندما كنت جزارا كانت تتبعنى الكلاب وعندما تحولت إلى شاعر أصبحت أتبع الكلاب! وهى إجابة ذكية وتكشف عن واقع الأحوال فى مصر فى تلك الأيام. لأن الأديب والشاعر فى تلك الأيام لم يكن أكثر من متسول وكان يعيش على موائد الأثرياء ومعونتهم. صحيح أن الواقع لم يختلف كثيرا الآن، ولكن الشكل هو الذى اختلف ولم يعد الثرى تاجرا فى السوق ولكن حل محله تجار من نوع آخر، رؤساء أحزاب ورؤساء حكومات ورؤساء أجهزة. والشاعر أيضا لم يعد شاعرا من بتوع زمان وعدته من نوع وكان الزحف يهدف للعلالى، وأنتم فوق هامات العلالى. ولكن الشاعر الآن صار أديبا ومفكرا وسياسيا وصحفيا وأرزقيا يقود حزبا كهربائيا يجند الأنصار بالأجر ويحشد الجماهير (المؤمنة) بالفلوس. . وكله أكل عيش . . وأحسن من السرقة والتهويش وكافة شىء يغضب الرحمن! المهم. . إن الأكل هو محرك التاريخ ، وهو الهدف وهو الأصل حتى وإن حاول البعض تغليف المسائل بالسيلوفان. وأمامك الحيوان الوحش الذى يتصرف بطبيعته ويمارس حياته كما أرادها الله. وما الذى يفعله الحيوان بالضبط؟ لا شىء سوى الأكل والحب . . والنوم.

ولكن الحب قاطعناه مذ فترة ، والنوم خاصمنا منذ عبرنا الستين . لم يبق إلا الأكل، ولكن حتى الأكل جاء الأطباء فى النهاية ومنعوه! ماذا يبقى الآن لكى يشعر الإنسان بطعم الحياة؟ مسلوق!؟ السجن الانفرادى فى ليمان أبو زعبل أهون بكثير من الحياة مع المسلوق أما العبقرى عبد الوهاب فكان له رأى آخر .

ويوم ننام ع الفراش!

فى البداية أقبلت على أكل المسلوق وكأنه عقوبة لابد من تنفيذها، واختفى كرش العبد لله بعد أسبوعين من بدء التجربة، وتصورت أول الأمر أن أكل المسلوق يسبب الهزال، ثم اكتشفت بعد فترة أن الجوع هو سبب الهزال.

فالعبد لله والحمد لله يعشق أكل البيت، ولأننى من هواة أكل البيت، فقد تفننت الحاجة أم أكرم فى تقديم الأصناف التى أعشقها. ملوخية يوميا فى الصيف، ومرقة لحم ضانى لو شمها كافر قلبه حجر من على بعد عشرة أميال، فسيؤمن بالله الخالق القادر، وكباب حلة من النوع الذى يجعل الإنسان يقبل يده « ظهر وبطن» شكرا للمولى على نعمائه. وصوانى بطاطس من النوع المحروق بعض الشىء فى الفرن ، وقطع اللحم المغروز فى أنحائها تبدو كقطع من العسلية، وترانشات الطماطم تغوص فيها وتعوم على سطحها، وسلطانية الطرشى البلدى حكم صادر من المحكمة العليا لابد من تنفيذه، طرشى فلفل وخيار ولفت بلدى وليمون بنزهير أصلى وعروش كرنب اللهم صلى على سيدنا النبى ، وعروق جرجير تحيط بالسلطانية وكأنها قوات الحرس تحيط بموكب السلطان. والحق أقول إنه ليس على ظهر الأرض طرشى مثل الطرشى المصرى الأصيل. وأقول الأصيل لأن هناك «طرشى مصرى مزيف، طرشى مخزون ومضروب وريحته تقرف الكلب». ولكن الطرشى الأصيل لا شىء مثله

فى أى مكان على ظهر الأرض. فى الهند يخللون المانجة والعنب. وفى إيران المخلل فواكه، تفاح على كمثرى، وفى العراق نفس الشىء. وعندهم فى الموصل واحد اسمه ملك الطرشى، تحملت من أجله مشاق السفر ثم ندمت على ذلك، وقلت فى نفسى إذا كان هذا هو ملك الطرشى، فما هو اللقب المناسب للحاج عبد النبى طرشجى الجيزة، والحاج الآخر طرشجى مصر القديمة، وللحاج الثالث طرشجى حى الحسين؟

المهم أن هذا كان طعام حضرتنا قبل الاعتزال، فلما اعتزلت مبكرا على طريقة طاهر أبو زيد، وأصدرت تعليماتى بالمسلوق، ضربت لخمة مع الحاجة، باعتبار أن المسلوق لم يكن بندا من بنود المعاهدة الأبدية، وبعد أربعين عاما من المحمَّر والمشمَّر، فجأة دقت ساعة العمل الثورى.. وبدأ عصر المسلوق. ولكن لأن الانتقال كان مفاجئا وسريعا وعلى غير انتظار، فقد جاء مسلوقنا أشبه بأداء فريقنا الوطنى فى كأس أفريقيا، أداء ماسخ وغير مبهج وغير لذيذ، ونتيجة تدريب ناقص ومسلوق. ولذلك كنت أبلع لقمتين وأحمد الله، ثم أشعر بالجوع بعد ساعتين، فأعود إلى طبق المسلوق ألتهم منه ملعقتين وكان الله بالسر عليم. وأخذ الكرش فى الاختفاء، وعدت إلى ملابسى القديمة أرتديها وأنا سعيد ورحت أتفكر فى محمد عبد الوهاب فنان القرن العشرين، وكيف أنه يدبج القصائد فى مدح المسلوق وفوائد المسلوق وطعم المسلوق، حتى خيل للعبد لله أن المسلوق هو أحد أفراد عائلة العبقرى عبد الوهاب. ثم اكتشفت أخيرا أن المسلوق له رجاله، كما كان للطواجن فرسانها. وإن الفرق بين المسلوق بتاعنا والمسلوق بتاعهم، هو فرق خبرة الحاجة أم أكرم فى هذا الفن، وتاريخ طباخ المسلوق الذى قضى حياته غالبا فى مطبخ عبد الوهاب، أو مطبخ أحمد خشبة باشا، أو مطبخ البارون إمبان. وكان البارون إمبان ـ صاحب قصر البارون المهجور

فى شارع العروبة ـ من أعجب مخاليق ربنا. كان صاحب فلوس تفرش على مائة فدان، وكان صاحب قصور منها قصر البارون. وكان يستطيع أن يطلب عشاءه من مطعم مكسيم أو من فندق والدورف استوريا. وكان بمقدوره توظيف الشيمى والعجاتى وأبو شقرة فى مطبخه، ولكنه لحكمة الله كان لا يستطيع أن يأكل سوى الشوربة بدون ملح، والفرخة البيضة مسلوقة بعد غسلها بالماء والصابون! ولذلك .. كان طباخه لا يجيد إلا طبخ الشوربة وسلق الفرخة، وكان مرتبه بالرغم من ذلك يزيد عن مرتب كبير الجراحين فى مستشفى كليفلاند! ولكن حظ العبد لله المهبب أننى قضيت أربعين سنة من حياتى الزوجية ألتهم المحمر والمشمر، ثم فجأة صدرت الأوامر بأكل المسلوق. أصبح حالى مثل حال زعماء إسرائيل، قضوا العمر كله فى العدوان وفى التقتيل وفى سفك الدماء. ثم صدرت الأوامر فجأة برفع شعارات السلام! أصبحت مثل الروس الذين عاشوا العمر كله فى الحنجورى المتشنكح فى المنجورى، ثم فجأة بين عشية وضحاها ـ على رأى الشيخ عبد العال ـ أصبحوا دعاة حرية وديمقراطية ومن عملاء الشواشى العليا للبرجوازية. أصبح حالى مثل حال بيض جنوب أفريقيا .. الأفريكانا. قضوا الدهر كله يرفعون شعار لا سادة إلاّ البيض، ولا نعمة إلاّ البياض، أما السود فلهم الموت والدمار وخراب الديار. ثم «فأجة» ـ على رأى عبده بكر المكوجى ـ أصبحوا من دعاة الإنسانية وأنصار الحرية والاشتراكية!

موقف محرج للغاية وثقيل على النفس جدا. أنا الذى كان يأكل الفول بالتقلية ويضرب فحل البصل الصعيدى بقبضة يده لكى يأكل قلبه، ويتغدى بالفسيخ الدمياطى مع البصل الأخضر، ويتعشى بورقة لحمة نضجت فى صهد الفرن البلدى، أن أجلس الآن إلى مائدة عليها قطعة جبنة قريش وقطعة خبز أسود وكوب شاى بدون سكر. إن السبع

يموت إذا عجز عن القنص ، والذئب يموت إذا وقعت أسنانه والصقر يموت إذا أصيب فى منقاره . وها أنذا عاجز عن اللهط وعن الزلط وعن الهضم . وأدفع خمسة ملايين دولار من ثروة الخاشقجى لمن يضمن للعبد لله أن يذهب إلى الحمَّام مرة واحدة بدون مشاكل .

أذكر أننى ذهبت إلى بورسعيد ذات صيف وأنا فى شرخ الصبا والشباب وذهبت إلى معسكر إقامة زعيم بورسعيد الخالد حامد الألفى . وهو رجل أشهد بأنه لابد من صلب محمد بك الألفى الذى حكم مصر فترة قبل محمد على ، والذى وقف محمد على أمام حاشيته ورقص بالسيف عندما علم بموته وقال : الآن خلص لى حكم مصر. وجلست مع الزعيم حامد الألفى وبعد التوصيات والسلامات سألنى الرجل الكبير: أنت كويس؟ ولما أجبته بالإيجاب، سألنى مرة أخرى: بتاكل كويس؟ فلما هززت رأسى علامة الموافقة، عاد يسأل من جديد: وبتروح الحمام مرتاح؟ ولم أجبه على السؤال، فقد تصورت أنه سؤال هايف، لأننى كنت آكل بمزاج، وأذهب إلى الحمام آخر راحة بلا متاعب ولامشكلات. ولكنى اكتشفت بعد أن مضى قطار العمر ياولدى . . كم هو وجيه هذا السؤال ياولدى .

فى رواية الأب الروحى . . يقول زعيم العصابة الإسرائيلى لسكاليونى الصغير: وما جدوى الفلوس ياولدى؟ إننى على استعداد لدفع أربعة ملايين جنيه لكى أذهب إلى دورة المياه مرة واحدة بلا مشاكل! والعبد لله يذكر معاناة عمنا زكى طليمات، وكنت أسير معه فى الشارع، وقد راح يصرخ كأرنب مصاب لأن البول انحبس فى الحالب. ثم سقط على الأرض ونقلناه إلى المستشفى . ولو معه مائة مليون دولار لدفعها عن طيب خاطر من أجل الخروج من هذه الورطة. نعمة الله على عبيده كبيرة ولكننا لانشعر بها إلاّ فى الزنقات. الفلاح الغلبان يشق طريقه داخل

الحقل بين عيدان الذرة ويجلس القرفصاء ويعملها بمنتهى السهولة، ويقوم إلى حال سبيله آخر راحة وانسجام . وعندما كانت المراحيض كلها فى الخلاء، لم يكن أحد يشكو من المصران الغليظ أو تلبك المعدة أو الانتفاخ . ولم تكن عمليات المصران الأعور معروفة أو شائعة بين الناس . عندما اخترع الإنسان المفترى الحمام الأفرنجى، حيث يجلس كأنه جالس على القهوة، كثرت العلل وانتشرت الأمراض . وأصبح أكل المسلوق هو الشائع ونالنى من الحب جانب فأصبحت من أكلة المسلوق .

سحقا للمدنية التى جلبت علينا الأمراض وجرت علينا المشاكل والنكبات. والله يرحمه الكليفتى، وهو اسم الشهرة لرجل كان يعيش فى الجيزة إلى عهد قريب. وأصل الحكاية أنه كان بيشتغل حرامى زمن الحرب العالمية الأخيرة ، ولكنه كان حرامى وطنى يسرق معسكرات الإنجليز. والإنجليز العساكر يسمّون الحرامى كليفتى فاشتهر الرجل بالكليفتى . ولكنه بعد الحرب لم يسرق شيئا، لأنه كما قلت كان حرامى وطنى لايسرق من أبناء وطنه ولو تعرض للموت جوعا. وعاش عمنا الكليفتى إلى سن الثمانين وكان من عادته فى شهر رمضان المساعدة فى إعداد موائد الرحمن مع الحاج إبراهيم نافع فلاح الجيزة الشهير. ولكن كان له شرط واحد ، أن يسمح له الحاج إبراهيم بالحصول على الطعام المتبقى فى الحلة (علشان المونة اللى فيه من غير مؤاخذة) . والمونة هى خليط من الدمعة والسمن وبقايا اللحمة التى ذابت مع السائل، وهى خلطة لو أكلها أفندى من بتوع المدينة لمات على الفور ، ولكن عمك المعلم الكليفتى كان يشربها وهو فى سن الثمانين ثم يتجشأ ويحمد الله الذى خلق الحجر من الشجر والمونة فى حلة الطبيخ .

عبد الناصر مات فى سن الخمسين والكليفتى كان يشرب المونة فى سن الثمانين. حياة غريبة ودنيا عجيبة، وأقدار وحظوظ ومزاجات والدنيا

تعطى من ناحية وتأخذ من ناحية ، ولاشىء يكتب له التمام ، وكأنه قانون واجب التطبيق على الجميع ، وخير شاهد على وجود هذا القانون هو عمك المحاسب محمد عبد الله . كان فى أيام الفقر والشباب يفطر طشت بليلة وطاسة طعمية وقدرة فول ، ويتغدى دكر بط مزغط وجوزين حمام ، ويتعشى بفطيرة مشلتتة وطبق عسل وخرطة جبنة تزن كيلو. وعندما أثرى عمنا عبد الله وأصبح يملك بيتا بحديقة وزريبة فيها كل أنواع الخراف والماعز والطيور، أصبح يأكل المسلوق فيصرخ ، ويشرب الماء فيبكى ، وحرمته الظروف اللعينة حتى من شرب الشاى .

ويدفع عمنا محمد عبد الله كل مايملكه نظير أسبوع واحد من أيام الفقر والجدعنة والصحة الحديد. ولكن صحة الإنسان ليست للمساومة ، وحياة الإنسان لا تقبل المقايضة ، والدنيا حظوظ ـ على رأى الصعايدة ـ ومزاجات وهى على رأى الحاج مصطفى ، أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل ، وأيام ننام على الفراش وأيام ننام على التل ، وأيام بنلبس حرير وأيام بنلبس فل . وفات الحاج مصطفى قبل وفاته أن يقول ، ويوم بنأكل خروف ويوم بنأكل مسلوق . . وهو غاية العذاب والذل .

على مذهب الأصفهانى !

ولكن أكل المسلوق لم يكن شرا كله بالنسبة للعبد لله ، فقد أصبحت بعد المسلوق أهدأ أعصابا وألطف مصرانا وأعمق نوما، والسبب أن الغذاء هو مصدر الطاقة وعندما يكون مأكولك هو النابالم والديناميت وقنابل المولوتوف فلابد أن تكون عصبيا كمتطرف ، دمويا كإرهابى ، أو متسلطا كزعيم قبيلة فى أحراش الأمازون. وكان عمنا أبو الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى من أكلة المتفجرات ، والكارثة الكبرى أنه كان يضيف إلى مخزن الذخيرة الذى فى بطنه مسحوق الـ T.N.T فقد كان من عادته بعد أن يحشر فى بطنه كميات هائلة من لحم الغنم وكميات أكبر من الكبة النية ومثلها من السمك المقلى بزيت جوز الهند . كان من عادته التهام خمس أوقيات من الفلفل الأسود يسفها سفا لزوم الهضم، وبعدها يتحول هو نفسه إلى قاذفة قنابل وصواريخ من فوق ومن تحت، ولذلك كان يتحاشى البقاء فى مجلس الخليفة بعد تناول الطعام لأنه كان لايكتم ريحا فى بطنه، وماكانت أكثر غازاته بسبب تفاعل كل هذه المتفجرات التى حشرها فى كرشه الواسع .

وكان عمنا الأصفهانى يرى أن حبس الريح فى الجوف يؤذى صاحبه وإرساله فيه شفاء ينجى، وراحة لصاحب (القولنج) ولذلك كان لا يحتشم من إرسال الضرطة أمام الناس ولا يحصر الفسوة ولا يجد فى ذلك عيبا. ويبدو أن الإنجليز والأوربيين جميعا على مذهب عمنا

الأصفهانى . ويرى هؤلاء الأجانب أن الجشاء أقبح من الفساء، وأن السعال أقبح من الضراط . ولكن عمنا الأصفهانى كان سعيد الحظ لأن مصرانه الغليظ كان نشيطا فى القبض نشيطا أيضا فى الطرد . ومن سوء الحظ أن يكون المصران مستعدا للاستقبال عاجزا عن الإخراج هنا يكون العذاب الحقيقى والخطر الأكبر وهنا يتحول الأكل إلى محنة وإلى نقمة وليس نعمة من نعم الله .

ويقال إن فساد المصران من فساد الأعصاب ولكن عمنا المرحوم العبقرى أنور المفتى كان يقول إن فساد الأعصاب من فساد المصران . وكان يرى أن الطعام كالأزياء ومايصلح لك قد لايصلح لغيرك وأن الجهاز الهضمى كموتور السيارة ينبغى عليك أن تمونه بما عودته عليه، وإذا كنت منذ البداية من أكلة اللحم السمين والجبن الدسم والفطير المشلتت واللبن بخيره فلا بأس عليك أن تواصل مشوار حياتك على نفس المنوال . وهى نظرية سليمة بالتأكيد فقد كان المرحوم جدى الشيخ خليل يأكل (ليّة) الخروف حتى آخر يوم من عمره وكان يفطر بالزبدة البلدى ويمرض إذا أكل قطعة لحم حمراء ناشفة ويرى أن الناس أصابتهم العلة بسبب أكل المسلوق والتزام ريجيم فى الطعام . وعمنا الدكتور حليم جريس - وهو عبقرى أيضا - يرى أن الطعام كله مفسدة للجسم وأن الأكل يقصف العمر وهو نفسه يفطر فى الصباح كوب شاى فقط ويأكل فى الظهر شريحة لحم مشوية، وفى المساء يكتفى بطبق سلطة خضراء يعصر عليه حبة ليمون بنزهير. وعمنا حليم جريس يوجد فى غرفة العمليات فى السابعة صباحا فإذا رأى طبيبا يعرق فعرقه هو الدليل على أنه أفطر ولا يتردد عمنا حليم جريس فى طرد الطبيب العرقان من غرفة العمليات!

وحكماء زمان كانوا يعتقدون أن فساد المصران سببه عدم احترام الناس للطعام، فللطعام آداب يجب احترامها، ولكن البعض يأكل وهو واقف أو وهو قافز أو راقص وهو الأمر الذى يؤدى إلى سوء الهضم. وعمنا المسعودى فى كتابه مروج الذهب يؤكد أن «كيومرث» هو أول ملوك الفرس، وكان عادلا ومنصفا وأول فرمان أصدره هو ضرورة أن يلزم الناس السكون عند الطعام لتأخذ الطبيعة بقسطها فيصلح البدن بمايرد إليه من الغذاء، وتسكن النفس عند ذلك فتُدبِّر كل عضو تدبيرا يؤدى إلى مافيه صلاحه من أخذ صفو الطعام، فإن الإنسان متى شغل عن طعامه بأى ضرب من الضروب، انصرف قسط من التدبير وجزء من التقدير إلى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك وهو الأمر الذى يضر بالأنفس!

وإذا كانت هذه النظرية من وضع «كيومرث» فالست الوالدة بالتأكيد كانت من تلاميذ هذا الملك الحكيم. فقد كان من عادة العبد لله تناول الطعام قافزا، وكانت والدتنا كلما رأتنى على هذا الحال تندب حظها لأن ابنها لايأكل جالسا مثل البنى آدمين. وكان من رأيها أن الأكل فى هذا الوضع يجعل الطعام ينزل إلى الركبة ولايستقر فى المعدة!

وبعض السادة من بتوع «الإزمز» على رأى عبد الرحمن الخميسى، يتصورون أن الطعام مسألة هايفة وأنه مجرد وسيلة للعيش وواسطة لمواصلة الحياة. وهذا الكلام فارغ لأن الأكل هو مسمار البطن وهو أيضا قاطرة التاريخ، ولم تقع ثورة فى التاريخ القديم والحديث إلاّ بسبب انقطاع رواتب الجند أو بسبب غلاء المعيشة وندرة المواد الغذائية وتفشى المجاعة بين الناس، وفى المقابل تزدهر الدول عندما تكون الأسواق عامرة والأحوال رائجة وموائد الكبار حافلة بكل مالذ وطاب، وممدودة لكل عابر سبيل، ولايمكن أن يسود الرخاء إلا بحاكم عادل يسوس الرعية على أسس بينهم مرعية ليحول بين أطماع البعض لأكل حقوق البعض

الآخر، وحتى لايتحول المجتمع إلى غابة يفترس فيها الأسود والنمور والذئاب الآخرين من فصيلة النعام والظباء وحمار الوحش !

يصف عمنا الجليل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى عهدا من عهود مصر فيقول : «وكانت مصر إذ ذاك محاسنها باهرة وفضائلها ظاهرة ولأعدائها قاهرة يعيش رغدا بها الفقير وتتسع للجليل والحقير، وكان لأهل مصر سنن طويلة وطرائق فى مكارم الأخلاق لاتوجد فى غيرهم . إن فى كل بيت من بيوت جميع الأعيان مطبخين ، أحدهما أسفل رجالى والثانى للحريم ، فيوضع فى بيت الأعيان السماط فى وقت الغداء والعشاء مستطيلا فى المكان الخارج مبذولا للناس ويجلس بصدره أمير المجلس والضيفان ، ومن دونهم مماليكه وأتباعه ، ويقف الفراشون فى وسطه يتفرجون على الجالسين، ويقربون إليهم مابعد عنهم من المقليات والمحمرات ، ولايمنعون فى وقت الطعام من يريد الدخول أصلا عند الأمير، ويرون أن ذلك من المعايب . وكان لأهل مصر عادات وصدقات فى أيام المواسم ، يطبخون فيها الأرز باللبن ويملئون من ذلك قصاعا كثيرة ويفرقون على المحتاجين والفقراء ، ويفرقون عليهم الخبز ويعطونهم بعد ذلك دراهم ، ولهم لذلك صدقات وصلات لمن يلوذ بهم» .

كان ذلك هو مظهر الحياة فى مصر أيام العز والبحبوحة ، مائدة الغنى مبذولة للجميع ، لايمنعون عنها أحدا ، لايحرمون الفقير والمحتاج وعابر السبيل من المقليات والمحمرات ، ولذلك فى أيام عز مصر كان من المتعذر أن ترى فى شوارع القاهرة «شحاتا» يسحب هرابيده وينادى فى الأسواق . . عشانا عليك يارب! فالأكل متوفر ومضمون فى بيوت الأغنياء فى الظهر وفى العشاء ولكن عمنا الجبرتى يعود فيصف الأحوال فى عهد آخر ويقول : « . . . واجتمع الفقراء والشحاذون نساء ورجالا ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع فلم يجبهم أحد ، فرجموا الديوان

بالأحجار ، فركب الوالى فطردهم من فوق فنزلوا إلى الرميلة ونهبوا حواصل الغلة فى وكالة القمح ، ونهبوا أيضا حاصل الباشا وكان ملآن بالشعير والفول ، وكانت هذه الحادثة هى ابتداء الغلاء ، حتى بيع الأردب القمح بستمائة نصف فضة والشعير بثلثمائة والفول بربعمائة وخمسين والأرز بثمانمائة نصف فضة ، أما العدس فلا يوجد . وحصلت شدة عظيمة بمصر وأقاليمها ، وحضرت أهالى القرى والأرياف حتى امتلأت بهم الأزقة ، واشتد الكرب وعظم البلاء وأكل الناس الجيف ومات الكثير من الجوع ، وخلت القرى من أهاليها وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ، وكان الرجل يذهب إلى الفرن ومعه عجين فى حراسة عدد من الرجال الأشداء يرفعون النبابيت ، واستمر الأمر على ذلك إلى أن تم عزل على باشا فى الثامن عشر من المحرم عام ١١٠٧هـ » .

ولكن . . . كيف عادت الأمور إلى وضعها السابق بعد عزل على باشا؟ يقول عمنا الجبرتى : «فلما حضر إسماعيل باشا الجديد وطلع إلى القلعة ، ورأى مافيه الناس من الكرب والغلاء أمر بجمع الفقراء والشحاذين بقراميدان ، فلما اجتمعوا هناك أمر بتوزيعهم على الأمراء والأعيان ، كل إنسان على قدر حاله وقدرته ، وأخذ لنفسه جانبا وعينوا لهم مايكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء إلى أن انقضى الغلاء وعاد الرخاء» .

ولكى نعرف أهمية ومقام الأكل فى التاريخ نجد أن ديوان العرب يرتكز فى مديحه على نقطة واحدة وهى إطعام الطعام ، فصاحب الجود والمكارم هو الذى يوقد النار أمام مضاربه لكى يدل الضيوف على مكانه . وإشعال النار أمام المضارب هى شفرة رمزية للعابرين فى جوف الصحراء معناها أنه يوجد هنا بالقرب من النار مكان تستطيع أن تستريح فيه ، ويهيئ لك فرصة أن تشرب الماء واللبن وتأكل ماتيسر من الطعام .

وكان الشاعر العربى إذا أفحش فى هجوه اتهم خصومه بأنهم لايستقبلون ضيفانا ولايطهون طعاما يقدمونه لعابر سبيل. وهناك قصيدة مشهورة هجا فيها أحد الشعراء قوما لبخلهم فقال :

قـوم إذا اسـتنبح الأضيـاف كلبهم قالوا لأمهم بولى على النار

إنهم لا يتورعون عن إطفاء النار بأن تبول الأم عليها فتخمدها. حتى لايراها الضيفان فيهرعوا إلى مضاربهم ، وقد يكلفونهم ماء وخبزا، وليس هناك أنذل ولا أحقر ممن يمنعون الزاد عن المسافرين فى الصحراء. وحتى الخنساء شاعرة العرب العظيمة التى بكت أخاها صخرا حتى انطفأ نور عينيها، ترثى أخاها فى إحدى قصائدها فتقول :

إن صخـرا لمولانا وسـيدنا وإن صخرا إذا نشتو لنحـّار

وإن صخـرا لتأتم الهداة بـه كأنـه علـم فى رأسـه نـار

أعظم صفات صخر عند الخنساء أنه كان إذا جاء الشتاء، أسرع إلى قطيع إبله فذبح منها عددا فى كل يوم ، ليطعم الفقير الجائع والغريب المسافر على الصحراء. ولايشعر الإنسان بالجوع قدر شعوره به فى زمن الشتاء فى ليالى البرد القارص، وصخر يعرف هذه الحقيقة، فيوفر للناس مايشبع بطونهم ويدخل الدفء إلى أجسامهم.

وفى الثلاثينات من هذا القرن فضح عمنا الشاعر عبد الحميد الديب مجتمع مصر بأشعاره عن محنته فى الصياغة والتشرد والجوع فى إحدى قصائده فى شكوى الزمان يقول عمنا الشاعر الديب :

وهام بى الأسى والبؤس حتى كأنى عـبلة والبـؤس عنتر

كأنـى حائـط كتـبوا علـيه هـنا ياأيهـا المـزنـوق تـرتر

وبعد موته كتب كامل الشناوى فى رثائه : اليوم مات شاعر تعرى واكتست الأضرحة، وجاع وشبعت الكلاب.

وعندما يختل نظام المجتمع يجوع شاعر عظيم مثل الديب بينما تشبع الكلاب فى الشوارع . وحياة الديب هى أفضل وسيلة لمعرفة حقيقة ماكان يجرى على أرض مصر فى العشرينات والثلاثينات ، حين انقسم المجتمع المصرى إلى قسمين وبينهما خندق عميق ، جوع هنا وشبع هناك ، وفرة هنا وندرة هناك ، ولذلك عندما ضربت الأزمة الاقتصادية العالم كله سنة ١٩٣٠ اختبأ الأثرياء فى قصورهم يأكلون المحمَّر والمشمر ، بينما كان الفقراء يطوفون فى الشوارع يبحثون فى أكوام الزبالة عن شىء يسدون به رمقهم ويبعدون عن أنفسهم شبح الموت .

ولكن ما الذى جرجرنا إلى هذا الحديث وكان حديثنا فى البداية عن المسلوق؟ . . . آه . . . لأن المسلوق هو أكل المرتاحين والمترفين . لأنك عندما يكون أمامك الخيار لتأكل المسلوق أو المحروق ، فهذه علامة على أن حضرتك فى حالة طيبة فإذا كثر عدد آكلى المسلوق فى بلدنا فمعناه أن الأحوال طيبة والدنيا ربيع والجو بديع قفّلى على كل المواضيع .

اعرف ربك.. وكن ماتشاء!

دليل نفاق البنى آدم . . أنك إذا سألته عن طعامه وشرابه ، قال إن أى شىء يرضيه وأى كمية تكفيه، وإنه يأكل لكى يواصل حياته، ويتساوى عنده الطعمية والكافيار، ولايجد فرقا بين مطعم مكسيم ومسمط الحاج جعلص!

صدقونى إذا قلت لكم إنه لايوجد على ظهر الأرض من يكره الطعام، أو يكتفى بلون واحد ، ولايتطلع إلى الطعام الدسم ولاتشتهى نفسه المائدة العامرة التى تشبه معرضا للطعام.

نعم لا يوجد أحد من هذا النوع على ظهر الأرض، إلا الأنبياء والمرسلين وبعض القادة والزعماء الذين نذروا أنفسهم للقضية. هكذا كان سيدنا محمد ومن قبله كان عيسى عليه السلام. وهكذا أيضا كان الفاروق عمر بن الخطاب، الذى فرض العدل والزهد فى زمانه وكان هو القدوة الحسنة للمسلمين. عاتبه بعض المسلمين على إسرافه فى زهده، وعلى التزامه بشظف العيش. فقال لهذا النفر من أصحابه: « أترانى أعجز أن آمر بشاة فيلقى عنها شعرها، وآمر بدقيق فينخل ثم يخبز خبزا رقاقا، وآمر بصاع من زبيب فيقذف فى قربة ثم يصب عليه الماء فيصبح كأنه دم غزال». وعلق أحدهم قائلا: « إنى لأراك عالم بطيب العيش» فقال عمر رضوان الله عليه: « أجل . . والذى نفسى بيده، لولا أنها تنتقص من حسناتى، لشاركتكم فى لين العيش» .

الرجل الكبير عمر بن الخطاب لايكره لين العيش ولايرفضه، ولكنه يتجنبه. وهو لديه من العزم والحزم ما يجعله قادرا على القيام بهذه المهمة الصعبة التى لايقدر عليها إلا أولو العزم الشديد من الرجال. ولذلك أيضا صار طعام ابن الخطاب مثلا يحتذى به على مر العصور .. وبعد رحيله عن دنيانا نظر البعض إلى أحوال المسلمين بعد وفاة عمر، ثم ذهبوا إلى الخليفة عثمان فوجدوا عنده الطعام الدسم، فصاحوا فى وقت واحد: « .. ليس هذا بطعام ابن الخطاب!» طعام ابن الخطاب سيصير من هنا وإلى الأبد ماركة مسجلة على الرجال الذين يتجنبون لين العيش بمزاجهم وبقرار منهم. إنها عملية مقاطعة وليست عملية كراهية أو عداء.

ولكن هناك أنواعا أخرى من البشر تحسبهم ملائكة من الزهد، وهم عكس ذلك فى واقع الأمر. البخيل مثلا لا يأكل إلا الخشن من الطعام إذا كان على حسابه ومن جيبه الخاص. أما إذا كان الأكل على حساب الغير، فهو ينهض بالأكل كله، ويمسح كل ألوان الطعام من فوق المائدة. والسبب أن البخيل إذا أكل على حسابه فهو لايشعر باللذة التى يشعر بها غيره من الآكلين. لأنه لايمضغ بين أسنانه أصنافا ولكنه يمضغ أثمانا. إذا مضغ تفاحا فهو يمضغ عشرة جنيهات، وإذا مضغ لحما فهو يمضغ عشرين جنيها، وإذا مضغ سمكا وقارا فهو يمضغ الشىء الفلانى. ومضغ الفلوس مر وصعب. والعكس صحيح.. إذا تناول البخيل طعاما على حساب الغير، لأنه فى هذه الحالة يمضغ ألوانا وأصنافا ويستمتع بها. وأبلغ مثال على هذا النوع من الناس هو رئيس حزب الكهرباء الذى لا يستسيغ إلا طعام الآخرين!

وهناك لون آخر من البشر كذاب وهجاص، أنا أعرف أحدهم، وهو مناضل من فصيلة النار، وهو يشيع عن نفسه أنه لا يحب إلا الفول المدمس ولا يأكل غيره، لكنه ينسى نفسه إذا وجد أمامه صينية بطاطس

بالفرن، أو ورقة لحمة صنعتها يد خبيرة، أو طاجن ماركة المعلم سرور أبو هاشم، عندئذ يتحول الزعيم الذى هو من فصيلة النار كأنه أسد مفترس فى غابات كاتنجا! والمدهش أن الزعيم إياه لديه أسطوانة مشروخة يديرها عقب كل أكلة من هذا النوع فهو يقسم بكل المقدسات أنه لم يأكل فى حياته كما أكل هذه المرة ، أما الأسباب التى يسوقها صاحبنا دائما فهى كرم أصحاب البيت وأصالة معدنهم!!

وكنت أعرف صديقا عميق الإيمان ، شديد التمسك بدينه، وكان يقضى نهار رمضان فى الصوم ، ويقضى ليله فى الصلاة. . فإذا جاء موعد الإفطار فلابد من مائدة عامرة سلطانية المرق على رأسها ، ثم لابد من طبق الأرز بالكبد والكلاوى، ثم كتف خروف . . ولابد أن يكون الكتف تشبها برسول الله الذى كان يحب من الضلع أعلاه، وله حديث شريف. . «أفضل اللحم ماجاور العظم» !

أذكر أننا دعينا إلى مائدة إفطار وكنا نقيم وقتئذ فى الكويت، وكانت الدعوة فى بيت أحد المصريين. واكتفى صاحبنا بكوب من عصير البرتقال ثم نهض للصلاة، وبعد الصلاة جلس إلى المائدة، وإذا بالطعام الموضوع أمامه هو بامية علب، ولحم استرالى مجمد ولا توجد شوربة ولاسلاطة ولا شىء مما يطلبه الصائمون. . ولم يتمالك صاحبنا نفسه فلعن صاحب الدعوة ولعن العبد لله الذى جاء به إلى هذا البيت، وخرج غاضبا وقاطعنى عدة أسابيع. . وعندما اتصل الود بينى وبينه من جديد، قلت لصاحبنا: أنت مسلم عميق الإيمان شديد التمسك بالدين، ورسول الله صلوات الله عليه كان يعيش على الأسودين. . التمر والماء. فقال صاحبنا: هذا صحيح . . . ولكن محمدا رسول الله كان نبيا وصاحب رسالة . وكان يستطيع أن يأكل الشهد لو أراد، ولكنه كان يريد أن يضرب المثل للمسلمين الذين آمنوا بدعوته. أما «أنا» فمجرد

مسلم من عامة المسلمين أؤمن بالله وبرسله وكتبه واليوم الآخر، وأشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ولكنى أحب أطايب الطعام خصوصا فى رمضان بعد يوم طويل من الصيام، وهذا حقى خضوعا لقوله تعالى: «كلوا من طيبات مارزقناكم».

ولكن بعض الجهلاء من وعاظ السلاطين يدعون الناس إلى شظف العيش كدليل على صدق الإيمان. وهى مسألة سياسية وليست دينية، لأن عمنا القطب الصوفى الكبير سيدى الحسن الشاذلى كان لا يأكل إلا أطايب الطعام، ولا يرتدى إلا اللين من الملابس، وصادفه رجل فى الطريق يرتدى ملابس مهلهلة بينما الحسن الشاذلى كان يرتدى الحرير وصاح فى وجهه: وهل يعبد الله بهذه الملابس؟ فرد عليه الحسن الشاذلى وهو يشير إلى ملابس الرجل المهلهلة : وهل يعبد الله بهذه الملابس؟ ملابسى تقول للناس أنا غنى عنكم فلا تعطونى، وملابسك تقول أنا فقير إليكم فأعطونى !

وقد سأله أبو العباس المرسى: هل يأكل الخشن من الطعام ويلبس الخشن من الملابس . وكان جواب الحسن الشاذلى لتلميذه المرسى أبى العباس: يا أبا العباس اعرف الله وكن كيف تشاء.

وكان أبو الحسن الشاذلى يتعمد أن يأكل اللين من الطعام وأن يشرب البارد من الشراب، وكان يقول: يابنى برد الماء فإنك إن شربت الماء الساخن وقلت الحمد لله تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد وقلت الحمد لله استجاب كل عضو فيك لحمد الله!

ووصفه بعض معاصريه فقالوا: كان الشاذلى يلبس الفاخر من الثياب ويركب الفاره من الدواب.

وكان له رأى فى الصوفية «ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة وإنما هو بالصبر على الأوامر وباليقين فى الهداية»، ولم يكن كل رجال الصوفية من طراز عمنا الحسن الشاذلى. وكان القبارى يرفض أن يأكل ثمرة سقطت من شجرة على أرض حديقته لأن أكلها حرام، ومن يدرى؟ ربما جاء بها طائر من حديقة أخرى وسقطت منه على أرض حديقته أثناء طيرانه، ولذلك حرم على نفسه أكل ثمار حديقته إلاّ إذا كانت مكانها على الشجرة؟

وكان أبو القاسم الجنيد من أنصار خير الأمور الوسط يعيش حياته بلا تقتير ولا رفاهية، لا إفراط ولا تفريط، وكانت فى بستانه شجرة عالية منع أسرته وضيوفه من الاقتراب منها قائلا لهم: « ثمر هذه الشجرة حلال للطير السارح والأكل منها حرام».

وكان عبد الله الرازى يرى أن الجوع هو طعام الزاهدين، وكان يرى أن الشكر ليس الشكر على النعمة ولكن الشكر على البلاء!

والطعام هو وقود الحياة... هذه مسألة ليس فيها أى شك. بل هذا أساس كل شيء. واليهود مثلا رفضت أن تصدق دعوى موسى، إلا إذا.. وكما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ **ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم**﴾ .

واليهود أيضا خاطبوا عيسى بن مريم: ﴿ **إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين**﴾ .

وفى القرآن الكريم : ﴿فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ . صدق الله العظيم .

وحتى رب العالمين سبحانه وتعالى . يغفر الخطايا وفرض على صاحبها إطعام الفقراء والمساكين . حتى الذى لايطيق الصوم يستطيع أن ينجو من العذاب إذا وفر الإفطار لجماعة من فقراء المسلمين .

وإذا كان توفير الطعام للفقراء واجبا ، فهو شرط من الشروط الواجب توفرها فى كل من أراد أن يتصدر المسيرة وأن يسلك الطريق . لذلك كان القطب الكبير رضوان يأمر اتباعه بسلق اللحم ، ثم يأمرهم بفتح النوافذ والأبواب لكى تسرى رائحتها فى الجو فتصل إلى خياشيم الجائع والفقير والمحتاج فيهرعون إلى حيث تنبعث الرائحة فيطعمون ويحمدون الله . وبعض أصحاب الطريق ذهبوا إلى أن تقديم الطعام للحيوان وللطير واجب أيضا ، بدليل الحديث الشريف : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلاهى أطعمتها ولاهى تركتها تأكل مما تمتلئ به الأرض ! » وقيل إن أجر إطعام الإنسان الجائع يساوى قدر إطعام الحيوان الجائع . . ولذلك يحكى عن سيدنا البخارى أنه كان يطوف بقرى بلاد ما بين النهرين بحثا عن كل من يحفظ حديثا عن النبى صلوات الله عليه ، وعثر على ضالته أخيرا ، فلاح كان يرعى شئون مزرعته ، فلما علم بأن القادم هو قطب الزمان وركن الدين الإمام البخارى ، رفض أن يستقبله فى مزرعته وأصر على أن يذهب معه إلى البيت ، فيذبح له شاة ويولم له وليمة . وكان مع الرجل قطيع صغير من الماعز ، فوضع فى كمه كمية من الزلط وراح يشخشخ له بها حتى يجبره على أن يتبعه ، ظنا من الحيوان البرىء أن مايشخشخ له به هو حبوب حمص أو فول . ولما وصل الرجل وضيفه إلى المنزل ، رفض الإمام البخارى أن يأكل من وليمته ، ورفض أن

يدون الأحاديث التى يحفظها، وقال له : « من يكذب على الماعز لا يستحى أن يكذب على رسول الله !! »

ومن الأمور الجديدة بالملاحظة أن أكل البخيل لا يؤكل ، وأكل الكريم يتناوشه الناس لأنه يبذله بنفس راضية ونية طيبة .

من هنا . . وحيث أن وليس إلاّ وثم إن وإذ ربما . . عندما نطق الطبيب المعالج بحكمه القاسى على العبد لله وقال : « من اليوم طعامك هو المسلوق ومأكولك هو المرق، ومحكوم عليك بالعيش بلا دسم ولا سكر، وستصبح زاهدا رغم أنفك وصوفيا دون إرادتك» . . عندئذ فرت الدموع من عينى ، لأنه ليس بهذا الطعام يعيش الإنسان .

شهداء الترك !

أول مرة داهمنى فيها مرض المصران الغليظ كان قبل قيام ثورة يوليو، ولجأت إلى العم زكريا الحجاوى فسحبنى من يدى إلى صديقه يس عبدالغفار. واندهش عمنا يس لأنه اكتشف أنى مريض فعلا، وأن المسألة غاية فى الجد ، ولابد من الالتزام برجيم قاس ، رجيم أشبه بالرجيم الذى اتبعه العبقرى عبد الوهاب مدة خمسين عاما طويلة. ولكن عبدالوهاب كان عبقريا ويعرف ذلك، والعبقرية مسئولية، ولذلك التزم بأوامر الطبيب وسار عليها لأنه ثروة قومية، أما العبد لله فوضعه مختلف.

ولذلك سألت عمنا يس عبد الغفار:

ـ وإذا خالفت الرجيم. . هل أموت؟

ـ لن تموت طبعا، ولكنك ستعيش عليلا كليلا، يوم فى العمل وأسبوع فى الفراش. يوم فى المكتب وعشرة فى المستشفى.

وقلت لنفسى: ولو . . مادام أكل الكوارع والكلاوى والمسبك والمشبك لا يقتل فكل شىء محتمل ، المرض والعجز والتعب والوهن إلى آخر هذه المنظومة من الصفات.

وعندما جلست على قهوة عبد الله فى المساء نظر نحوى العم زكريا الحجاوى وقال فى لهجة أسف صادقة:

ـ قتلك الترك يامحمود.

وكان كلام العم زكريا صحيحا، فالمطبخ المصرى مطبخ تركى، أدخله الأتراك مصر كما أدخلوه فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية . كل أنواع المحشى وكل أنواع السلطة وكل أنواع الأكل المسبك، دقية البامية، والكوسة ، والمسقعة باللحمة وبدون ، وكل أنواع الكباب والكفتة، وكل أنواع الأرز بالخلطة وبدونها. وكل أنواع الطرشى والمخلل صناعة تركية، وكل أنواع الحلويات من البقلاوة إلى الكنافة إلى لقمة القاضى تركية ، وتستطيع أن تتناول دقية البامية على مساحة من الكرة الأرضية تمتد من طنجة فى المغرب إلى سراييفو فى البوسنة . ولكن دخلت تعديلات بسيطة فى كل بلد، فى مصر مثلا دخل الأسلوب الفرنسى على المطبخ التركى، وفى المغرب اختلط المطبخ الأسبانى بالمطبخ التركى، وهكذا . ولكن تبقى الغلبة للمطبخ التركى .ولكن . . . هل صحيح أن هذه الأصناف هى بنت المطبخ التركى؟ الصحيح أن الأتراك هم الذين أدخلوها عندنا . ولكن المطبخ التركى فى الحقيقة هو مطبخ فارسى باعتبار ماكان، وإيرانى باعتبار حقائق الجغرافيا اليوم. لأن الترك قومية داخل الوطن الإيرانى. والأتراك الذين يقيمون فى تركيا اليوم هم تركمان نزحوا من فارس. ولم ينزح جميع صنف التركمان من فارس، ولكن نزحت قبيلة واحدة منهم، هى قبيلة ابن عثمان، والتى أصبحت الدولة بعد ذلك باسمها، وصار اسمها الإمبراطورية العثمانية.

وكلمة طرشى كلمة فارسية وتنطق «ترشى» بالتاء وليس بالطاء. ولكن الأتراك لهم فضل إدخال تحسينات على المطبخ الفارسى، ونجح اللبنانيون فى إدخال تحسينات أخرى، فصار هو الأفضل، ونجح المغاربة فى إدخال تحسينات أخرى، فصار المطبخ المغربى الحالى هو أفضل مطبخ على مستوى العالم العربى، ولكن بشرط أن يكون الطباخ ماهرا للغاية، والمواد الأولية جيدة للغاية .

أذكر أننى تناولت الغداء ذات يوم منذ أعوام قليلة فى بيت السيد أحمد ابن سودة مستشار الملك الحسن الثانى ملك المغرب. وكنا ثلاثة على المائدة، ابن سودة وأحمد الجار الله والعبد لله. واعترف بأننى بالرغم من السنين الطويلة التى عشتها، والبلاد المتعددة التى زرتها، لم أتناول أشهى ولا أطعم من طعام ابن سودة. خليط من المطبخ التركى مع إضافات إسبانية مع نفس مغربى، خلطة لا أعتقد أن لها شبيها فى أى مكان. وسألت المستشار ابن سودة عن طباخه وكم من السنين قضاها فى بيته، فأجاب: نحو أربعين سنة. وقال ابن سودة: لقد سألنى جلالة الملك الحسن نفس السؤال، وطلب منى أن أرسل له بالطباخ فترة من الوقت ليلتحق بمطابخ القصر الملكى. ولكنى رفضت طلب الملك. فما كان منه إلاّ أن نظر نحوى نظرة تحمل كل معانى الدهشة، فكيف أرفض له مثل هذا الطلب، مع أنه يعلم أنه لو طلب روحى لبذلتها من أجله مسرورا. وزادت دهشة الملك عندما قلت له أنا لا أعطى طباخى لأحد، حتى ولا لجلالتكم..! وصمت ابن سودة بعض الوقت.. وقال: لأن طباخى ياجلالة الملك هى مرتى.. يعنى زوجته!! وضحك الملك الحسن كثيرا، وأعلن قبوله لرفض ابن سودة.

وقد يسأل سائل: ولكن أين المطبخ العربى فى مصر؟ خصوصا والعرب دخلوا مصر قبل الأتراك بقرون طويلة. والحقيقة أن العرب لم يكن لديهم مطبخ من أى نوع. فقد كانت صحراء العرب شحيحة ولم يكن لدى العرب من أطايب الطعام إلاّ شواء اللحم على النار، أو سلقه فيصبح مرقا وأضاف الفرس إلى المرق الخبز والأرز فصارت الفتة. وهذا المطبخ الإيرانى الأصل، التركى بالتجنس، العربى بالاستعمال، هو سبب كل النوائب والمصائب التى أصابت بلاد الشرق. فالرجل الشرقى عصبى وعديم الصبر لأن مصرانه الغليظ ملتهب. وهو كسول وبطىء

الحركة وتتلون حياته بلون الزفت إذا لم يتمدد ساعتين فى الظهيرة. والسبب أن معظم هذه المواد المتفجرة تحتاج إلى دم كثير، فتسحب المعدة الكمية اللازمة لها وتترك باقى الجسم يعانى من نقص السيولة ، ولذلك فهو ينام فى المكتب وينام فى الأوتوبيس وينام على القهوة، وأحيانا ينام البعض وهم سائرون فى الطريق العام. والرجل الإنجليزى مثلا يأكل ما يفيده ونحن نأكل ما يلذ لنا ويفسد حياتنا. ولذلك لانجد إنجليزيا أو فنلنديا نائما بالنهار. إنهم ينفذون تعاليم القرآن ونحن نصنع عكسها. قال تعالى: ﴿ **وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا**﴾ الآيتان ١٠ ، ١١ سورة النبأ.

ولكن أغلب العرب حتى الموجودين فى لندن ينامون فترة الظهيرة ، مع أن الجو هناك لايشجع على النوم بالنهار، وهى مسألة تثبت أن الطقس برىء من جريمة نومنا فى النهار، لأن العرب ينامون بالنهار فى لندن مع أن الحرارة عشرة مئوية والجو منعش ويميل للبرودة. إنه الأكل وليس شيئا آخر.

دعانى السفير أحمد والى إلى مطعم دنماركى فى كوبنهاجن، وملأت معدتى بلا لذة وبلا طعم، وخرجت أحجل فى الشارع كعصفور أبوفصادة. آخر نشاط و آخر عفرته!

ودعانى بعد ذلك إلى مطعم مصرى يمتلكه رجل من بور سعيد بلد الكابتن الضيظوى والسمك الشبار، ومديره ولد مصرى آخر كان معيدا بكلية الهندسة، ثم ترك الهندسة وترك مصر كلها وتفرغ لإدارةالمطعم المصرى فى كوبنهاجن. وأشهد أنه مطعم مصرى بحق وحقيق، والسمك الذى أكلته فيه لم أذق مثله منذ أيام الزعيم البورسعيدى حامد الألفى - يرحمه الله - والطرشىَ الذى تناولته هناك فشر طرشى عبد النبى، لأن الخيار نظيف وخال من الفاشيولا، والخس أوراقه مثل أوراق القطيفة

الخضراء. . والفلفل. . الفلفلة تضرب لها تعظيم سلام وتنام لها عدة ساعات فى النهار.

والأكل هو موحد الشعوب بلا جدال . فالمكسيكى يسلك سلوك المصرى واللبنانى والليبى وكل أبناء الطائفة من طنجة للكويت، لأن الأكل المكسيكى نسخة من الأكل الشرقى، ولا أعرف كيف اخترعوه، مع أن الإيرانيين والأتراك لم يذهبوا إلى هناك . وأهل المكسيك فرضوا أكلهم على شعوب أخرى مجاورة ، وأصابوهم بنفس الأمراض، والعبد لله أكل الفول المدمس فى مطعم مكسيكى فى ضاحية باسادينا بلوس انجلوس. فول مدمس دكر، من يتناوله يحتاج إلى سيارة إسعاف ومستشفى من نوع مستشفى أم المصريين. وأغرب شىء أن آكلى الفول فى المكسيك بنوا أهرامات مثل التى بناها آكلو الفول على ضفاف النيل . دليل على أن هناك صلة وثيقة بين الفول والأهرامات. ولكنهم فى المكسيك تفننوا فى صنع الفول ، وعملوا من الفول ألف صنف، وخلطوا كل الأصناف بالفلفل الصعيدى والهريسة التونسى والتاباسكو الإيطالى. والعبد لله الحاصل على الدكتوراه فى الشطة والشطيطة ، لم أذق طعم النوم بعد عشاء على مائدة مترامية الأطراف من كل أنواع الشطة. والمكسيكى لا يشعر بلسعة الشطة بعد كأس واحد من التكيلة، وهى نوع من الخمر شديد الشبه بعصير البراطيش، لكن كأسا واحدة منها تجعلك تفقد الإحساس وتفقد الاتزان وترقص السامبا وأنت أمام المحكمة!

وأغرب شىء أن عندهم فى المكسيك كبابا ولكنه كباب مختلف، قطع لحم فى حجم نصف الكف، توضع على أسلاك فوق الفحم، والكبابجى يمسحها بين الحين والآخر بفرشاة مثل فرشاة المبيّض الذى يدهن الجدران ، وقبل مسح اللحمة يغمس الفرشاة فى سائل، وعرفت بعد أن أكلت أن السائل إياه هو شطة مذابة فى عصير من الليمون

والخل. وليست المكسيك وحدها هى التى تعشق الشطة وتأكلها، ولكن السودان الشقيق أيضا من هواة الشطة. والشطة السودانى مشهورة وزائعة الصيت. الحبشة أيضا شطتها معروفة، والعبدلله أكل أكلة اسمها (زِغِنّى) بكسر الزاى والغين وتشديد النون، وهى أكلة حمام مطبوخة بالشطة، وأكلتها فى معسكر الشجرة بالخرطوم، ومع اللواء أحمد عبد الحليم قائد الجيش السودانى أيامها، فى الزمن الذى كانت فيه زيارة السودان ممكنة والإقامة فيه متعة!

هناك أيضا الصين، وهى تأكل الشطة ولكن بحساب، وتخلطها بأصناف تقضى على خطورتها. والمطبخ الصينى هو أغرب وأعجب مطبخ على ظهر الأرض، ولكنه مطبخ مفيد، لأنه يطبخ أى شىء وكل شىء، حتى الدود والصراصير والدم والعظام.

وقد روى الأستاذ الكبير هيكل قصة عن غدوة أكلها مع شوان لاى أحد رموز الصين فى القرن العشرين. وكيف أن البطة عملوا منها عشرة أصناف، فالعظام شوربة، والجوانح خلطوها بالسبانخ، والصدر شرائح ،والأفخاذ جردوها من العظام وجعلوا منها شطائر، أما الرءوس فقد دقوها وعملوا منها مخللا أشبه بالطحينة!!

وتصوروا، كيف أصبح حال العبد لله عندما أخبرنى الطبيب أننى صرت مريضا وعلى العبد لله أن يأكل بحساب ويشرب بحساب، أما الطرشى فممنوع، أما المسبك والملبك فهو رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ياأولى المزاج.

وهتفت مثل الشاعر طرفة بن العبد : الآن ، بطن الأرض خير لنا من ظهرها!!

النار .. النار !

لم يكن العم زكريا الحجاوى هو المخطئ الوحيد عندما اتهم الترك بأنهم المسئولون عن أزمة مصارينى ، لأن الفرس هم المسئولون وليس الترك. ولكن العبد لله أخطأ أيضا عندما اتهم الفرس، لأن المسئول الحقيقى عن مأساتى ومأساة كل البشر هو أول بنى آدم اكتشف النار واهتدى إليها .

فقبل اكتشاف النار كان عمر الإنسان على الأرض يمتد إلى نحو قرنين من الزمان ، لأن البنى آدم فى ذلك الزمان البعيد كان يأكل أكله ، وكان مأكول البنى آدم وقتئذ هو مأكول القرد ، ولعل هذه الرابطة هى التى أوحت للأخ داروين بأن الإنسان أصله قرد . وإن كان العم داروين لم يستطع إثبات نظريته ، وظلت هناك فجوة لم يستطع داروين سدها ، أو بمعنى آخر، كان هناك « كوبرى» لم يستطع داروين عبوره ، لأن داروين لم يستطع أن يدلنا على واحد من صنف البنى آدمين فى الهيئة التى كان عليها فى مرحلة الانسلاخ من هيئة القرد إلى هيئة الإنسان .

المهم أن مأكول البنى آدم كان هو المكسرات بكل أنواعها ، بندق على فستق على لوز على جوز. وكان يأكل لحاء الشجر ويأكل الفواكه ويلتهم الخضراوات طازجة ، ولذلك كان جهازه الهضمى صاغ سليم وكانت معدته تهضم الحجر.

ولايقتل البنى آدم مثل الجهاز الهضمى، فلما اهتدى الإنسان إلى النار، وبدأ يطبخ طعامه، اختلف الحال وانقلبت حياة الإنسان رأسا على عقب .

وأول مرة اصطاد الإنسان أرنبا فى الغابة وشواه على النار وأكله، كانت هى بداية الرحلة إلى قرصة المعدة وتشنجات المصران الغليظ ودستة أمراض أخرى ابتداء من التعنية إلى الإسهال إلى الغازات والانتفاخ، مع أن الإنسان البدائى استعمل فى الشواء أعواد الحطب، وكانت أكثر أمانا من الفحم الذى اكتشفه الإنسان بعد ذلك، والفحم أكثر أمانا من غاز البوتاجاز وأفران الميكروويف التى ثبت أنها تسبب السرطان. هناك مادة أخرى اكتشفها الإنسان القديم واستخدمها فى الشواء وهى مادة الزلط، وهو زلط له مواصفات خاصة، أملس وشفاف وكانوا يرصونه بعضه فوق بعض ثم يشعلون فيه النار فيشتعل، ولايزال هذا النوع من الزلط يستعمل حتى اليوم، تستعمله قبائل البشارة، خصوصا أثناء رحلاتهم المتكررة عبر التاريخ فى درب الأربعين بين السودان ومصر وبالعكس. والرجل البشارى يضرب عينه فى الصحراء المحيطة به، ويجمع الحصى إياه ويستطيع أن يفرق بينه وبين كل أنواع الحصى المتناثرة على الرمال، وبعد أن يشوى ويأكل ويشرب الشاى ويحمد الله، يصب الماء على الحصى إياه، ثم ينثره على الرمال ليستفيد منه آخرون يمرون بالمكان.

ولكن الأمر فى فجر التاريخ كان سهلا وهينا. الطامة الكبرى حطت على رأس الإنسان عندما اهتدى إلى أسلوب قدح الزبد وتحمير اللحم، وازداد الأمر خطورة عندما اكتشف التقلية والتخديعة، هنا بدأ عمر الإنسان فى التناقص حتى صار يصاب بالشيخوخة فى سن الخمسين، ويموت قبل أن يبلغ الستين، وأصبح لسان حال البشرية كلسان حال

الشاعر الجاهلى الذى وصف أحوال قومه ذات يوم فقال : والشيب شين إذا يشيب !

كان الشاعر الجاهلى يتباهى بقومه الشجعان، الذين هم لفرط شجاعتهم يموتون شبابا ولايبلغون مرحلة الشيب. فإذا شاب الفرد منهم كان ذلك عارا، فالشيب شين إذا يشيب، هذا الوصف انطبق على البنى آدمين جميعا فى مرحلة من المراحل فأصبح الشيب شينا، ليس لشجاعتهم ولكن للفجعة التى أصيبوا بها، فانهالوا على المحمر والمشمر والمكبوس والملفوف. وجاء العلم الحديث ليكتشف الكوليسترول وضيق الشرايين وتلف الصمامات وقرحة الاثنى عشر .

ثم تقدم العلم أكثر ليضع يده على القتلة الثلاثة ويطلق عليهم الأطباء « القتلة البيض الثلاثة »، ووصف البيض لأن لون الثلاثة أبيض، الملح والسكر والخبز الأبيض، والوصفة السحرية للإنسان هى أن يأكل الردة والنخالة ويأكل الخضراوات بدون طهى ، ويبتعد عن أكل اللحم ويبتعد عن أكل السمن، لأن كل ملعقة سمن تخصم شهرا من حياته، أما إذا تم قدح السمن فكل ملعقة منه تخصم عاما من حياته.

والناس قسمان. . ناس تأكل لتعيش وناس تعيش لتأكل، ولكن قلة قليلة ونادرة هى التى تأكل لتعيش، أما البقية الباقية من البشر تعيش لتأكل. والبشر يأكلون كل شىء وأى شىء، الدود والنمل والذباب والكلاب والجراد، وفى دول الخليج قبل النفط كانوا يكرهون أكل الجمبرى، وكان الصيادون إذا اصطادوه عن طريق الخطأ ألقوه فى البحر أو على الأرض، ولكنهم كانوا يأكلون الجراد وينتظرون موسمه على أحر من الجمر . فلما وفد على الخليج مئات الألوف من العرب الآخرين ، من مصر وسوريا ولبنان والمغرب العربى، آكلى الجمبرى والكابوريا واكتشف عرب الخليج أن أخوانهم فى العروبة يأكلون هذا الشىء، باعوه لهم ثم

أكلوه معهم! نفس الشيء حدث بالنسبة لسقط الحيوانات وأيضا بالنسبة للكبدة والقلب والحلويات، كان الجزارون فى الخليج يلقون بهذه الأشياء فى الزبالة، فلما ذهب عرب البحر المتوسط إلى هناك صار لهذه الأشياء سعرًا بعد أن أصبحت مطلوبة من الجميع.

وفى أفريقيا قبائل لاتسعى للصيد ولاتجد نفسها فيه، ولكنها تتعقب الأسد وتنتظر حتى ينقض على فريسته وتنقض عليه وتزعجه بالطبول وترهبه بالرماح حتى يضطر إلى الهرب، وبعد ذلك يقطعون من الفريسة مايحتاجونه ويأخذونه وينصرفون تاركين بقية الغنيمة للضباع والنسور!

وفى استراليا يأكلون التماسيح الصغيرة شرط ألا يتعدى عمرها العامين. وفى حوض الأمازون يأكلون السحالى، وفى جبال الأنديز أشهى أكلة عندهم هى عجة النمل. وبعض قبائل أفريقيا تأكل حتى هذه اللحظة لحم البشر ولكن لأن الحكومات تحرمه وتعتبره نوعا من أنواع القتل وتحكم على مرتكبه بالإعدام، لذلك تألفت جمعيات سرية يأكل الأعضاء بعضهم بعضا عن طريق القرعة. ويقال إن أشهى قطعة فى جسم الإنسان هى كفوف اليد، ويقال أيضا والعهدة على الآكلين أن لحم البشر هو اللحم الوحيد الذى لايحتاج إلى ملح، لأن ملحه منه فيه كجورب سعيد صالح الذى كان أستكه منه فيه!

ولكن ليس كل الطعام المكوى بالنار يؤدى إلى قصف الرقبة. هناك المسلوق وضرره أقل. أقل بكثير من المشوى ومن المسبك والمقلى، ولذلك ينصح الطبيب مريضه بأكل المسلوق لأنه أهون. ولكن من قال إن البنى آدم يفعل مايفيده، الإنسان يفعل مايلذ له وليس مايطيل حياته. والعبد لله يدفع من حياته ولايتوقف عن أكل المخلل ورشف مية الطرشى بالدقة والتهام الباذنجان أبو خل. عندما كان عم عبد النبى حيا يرزق كنت أمر على دكانه فى شارع عباس بالجيزة وأنا فى طريقى إلى المدرسة الابتدائية

وأشرب من عنده على الريق كوب مية طرشى بالدقة والخل ، ولو خيرونى فى تلك الأيام بين بئر مية طرشى وبئر بترول لاخترت البئر الأول على الفور. . وكان معنا فى المدرسة ولد فلاح اسمه كَرَنْك . . بفتح الكاف والراء وتسكين النون، والعبد لله هو الذى أطلق عليه هذا الاسم لأنه توسل إلينا ذات مرة أن نذهب به إلى المقهى ليسمع أغنية (الكرنك) لعبدالوهاب ولكنه نطقها كرنك كما ذكرت لكم من قبل . الأخ كرنك كانت ألذ أكلة عنده هى الليمون المخلل مع البصل الصعيدى . وكان يفضلها على الفراخ واللحوم وكافة شىء يسيل له لعاب البنى آدم، ولولا أن الإنسان مخالف بطبعه والناس طبائع شتى وأمزجة مختلفة ، لولا هذا لأصبح بطن الأرض خيرا لنا من ظهرها .

هذا هو الإنسان، الثائر يعرف أن نهايته على أعواد المشانق ومع ذلك يواصل المشوار ، والمقاتل يعرف أنه قد يأتى عليه وقت يصبح فيه طعاما للذئاب ، ومع ذلك لايتوقف عن القتال . . والعبد لله من هذا الصنف، مع فارق بسيط . . إننى لامقاتل ولاثورى، ولكننى أكيل طواجن ومحشى كرنب ومحشى باذنجان وملفوف ومكبوس، وأكلت الدوسرة مع عمنا الحاج أبو حسن والحاج إبراهيم نافع .

ولكن ماهى الدوسرة؟!

دوسرة الحاج أبوحسن !

هل تعرف الدوسرة؟ إنها كلمة غامضة وغريبة، ولكنها بسيطة للغاية، ومع ذلك تعمل عمل السحر فى نكهة الطعام ومذاقه، الدوسرة باختصار هى علبة صفيح أخذت شكلها واستدارت حوافيها بدون لحام. هذا هو شرط الدوسرة. . . أن تكون بلا لحام. أما إذا خالطها اللحام فلا تصلح لشىء وتصبح علبة عادية . . يعنى مش دوسرة.

أما الذى اهتدى إلى هذا الاختراع فهو الحاج أبوحسن . وأبوحسن أو عم أحمد المنجد كان يعمل مقاولا مع الأورنس فى الجيش البريطانى أيام الحرب. والأورنس كلمةإنجليزية (ORDENANS) معناها الإمدادات. وكان سلاح الإمدادات يتولى مهمة إمداد قوات الجيش بكل ما يحتاجه من أشغال وأعمال. ولكن المصريين يخترعون دائما نطقا مختلفا للكلمات الصعبة. العبد لله مثلا ينادينى بعض أصدقائى من أولاد البلد فى الجيزة بالسعداوى، لأن السعداوى أسهل فى النطق من السعدنى . ولكن البعض يتصور أن الكلمة عربية ينطقها العوام بالألف بدلا من القاف ولذلك يكتبونها «قورنص».

المهم أن عمنا الحاج أبوحسن كان يقوم بعملية داخل معسكر الإسماعيلية خلال الحرب، وكانت العملية هى تنجيد ثلاثة آلاف مرتبة، ولذلك اضطر عمك أبوحسن إلى البقاء داخل المعسكر مع عماله لمدة شهر. وذات يوم سأله الشاويش الإنجليزى الذى كان يتولى مهمة الإشراف على عملية التنجيد أن يحسب حسابه فى غدوة اليوم. وأصل الحكاية أن الشاويش الإنجليزى لاحظ أن عمنا أبوحسن كان يتولى فى

كل يوم إعداد وجبة لنفسه فى فترة الغداء . ورقة لحمة ، صينية بطاطس ، أكلة عكاوى ، طاجن تورلى ، كباب حلة . وكانت رائحة الطعام الذى يعده أبوحسن تسيل لعاب الشاويش الإنجليزى الذى التوت مصارينه من أكل المسلوق . ولذلك تجرأ وطلب مشاركة أبوحسن الطعام . وبحث عمنا أبوحسن فى ذلك اليوم عن إناء لينضج فيه الطعام ولكنه لم يعثر على شىء فقد استولى العمال على الطاجن وعلى الصينية وعلى الحلة لاستخدامها فى إعداد الغداء . ولم يجد أمامه إلا علبة بسكويت إنجليزى علبة صفيح ملونة مزينة برسومات من الخارج وبيضاء لامعة كالفضة من الداخل ، ولاحظ أبوحسن ملاحظة ذكية هى أن العلبة بلا لحام . ومن أجل إكرام الضيف الإنجليزى ، أرسل أحد عماله إلى منزله فجلب له دكر بط مزغط كان إذا تحرك زحف على الأرض من شدة السمنة . . ووضع دكر البط فى العلبة ، وعليه عشرة فصوص توم من النوع الصعيدى الذى كل حبة منه فى حجم العنكبوت . وسبع ملاعق سمن بلدى بملعقة أبوحسن التى فى حجم السلطانية ، وثلاث حبات من البصل البحيرى ، كل حبة فى حجم الكرنبة ، وضعها أبوحسن كما هى بعد تقشيرها بلا تخريط ولاتفصيص . وفوق كل شىء أربع قرون فلفل شطة لو أكلها ثور صومالى عنيد لقفز كلاعب كرة سلة من الفريق الذهبى الأمريكى ! وركن عمنا أبوحسن العلبة الدوسرة على باب الفرن الذى كان يقوم بإعداد العيش للمعسكر ، وتركها مكانها هناك لمدة خمس ساعات كاملة . وعندما أبعدها أبوحسن عن النار كانت رائحة الطبخة قد وصلت إلى نخاشيش المارشال مونتجمرى فى العلمين . وعندما كشف أبوحسن الغطاء عن العلبة الدوسرة لم يكن فيها دكر بط ولابصل ولاثوم ، ولكن كل المواد تحولت إلى عجينة ولا الشيكولاته السايحة . وأكل الإنجليزى مع أبوحسن كما لم يأكل من قبل . ولكنه بعد ساعتين من

موعد الغداء كان يتمدد على سرير فى المستشفى العسكرى، واحتار الأطباء فى وصف الداء، ولم يكن هذا ذنب الأطباء، ولكنه ذنب كتب الطب التى خلت تماما من أى ذكر لطبخة الدوسرة التى ألزمت الإنجليزى سريره بالمستشفى عدة أسابيع.

ولكن حكمة الله أن عمنا أبوحسن كان يأكل الدوسرة أحيانا فى الظهر وأحيانا فى المساء وأحيانا فى الفجر، فقد كان من عادته السهر أحيانا على شاطئ بحيرة التمساح عند قرية أبو جاموس. وكان يعد أكلة الدوسرة ويرسلها إلى الفرن البلدى فى منتصف الليل. ثم يحضرها له عامل الفرن فى الفجر، فيأكلها وينصرف إلى بيته فى مدينة الإسماعيلية لينام حتى العصر ويقوم آخر صحة وآخر نشاط. لم يشعر أبوحسن بألم فى مصرانه الغليظ فى أى وقت، ولم يذهب إلى طبيب فى حياته إلاّ فى حالة واحدة فقط، هى اضطراره إلى خلع ضرس من أضراسه التى نخر فيها السوس بعد أن تعدى الستين بسنوات. ومع أن الدكتور حليم جريس قال للعبد لله إن من يأكل هذه الطبخة ليلا وهو فوق الخمسين لابد أن يموت ولايطلع عليه صباح. إلا أن عمنا أبوحسن عاش حتى قارب الثمانين ومات محروقا بالنار وتفحمت جثته بعد أن أدركه النعاس وهو جالس بالقرب من منقد الفحم فى ليلة الشتاء.

والدكتور حليم جريس هو الأول على دفعة من الأطباء العباقرة من بينهم أنور المفتى ويس عبد الغفار وعلى عبد العال. ولكن أنور المفتى كان له رأى مختلف. حكيت له عن جدى الشيخ خليل الذى عاش إلى سن المائة والعشرين، والذى كان من رأيه أنه لايقصف الأعمار إلاّ أكل اللحم الأحمر الخالى من الدهون، وهو نفسه لم يكن يأكل إلا اللحم السمين الذى يلظ. وأفضل قطعة لديه من لحم الخروف هى «اللية» التى تلظ وتبظ بالدهن القاتل. وكان تعليق عمنا المفتى أن المعدة

كالماكينة تعمل وفقا لنوع الطاقة الذى تعودت عليه . إذا نشأت على السمين كان السمين لها أفضل ، وإذا تعودت على الناشف الحاشف فهو لها أفضل . الخطر أن تحاول التغيير أثناء الطريق. إذا كانت الماكينة متعودة على الناشف وأعطيتها سمينا كانت الكارثة. وإذا كانت متعودة على السمين وأعطيتها ناشفا كانت القارعة. وأعتقد أن رأى المفتى هو الرأى الصواب، لأن عمنا المفتى كان طبيبا باطنيا عبقريا، بينما عمنا حليم جريس جراح عبقرى له مشرط ينطق ويفكر ويتأمل. ومهمة الدكتور المفتى هى علاج الأعضاء الموجوعة، أما مهمة عمنا حليم فهى بتر هذه الأعضاء.

المهم أننى أكلت الدوسرة مع عمنا أبوحسن وعشت بعدها أسبوعا أعوى من شدة الألم فى المعدة وفى المصران الغليظ، وانتفخت بطنى كأنها كرة قدم نفخوها عند عجلاتى فى سوق الاثنين، ولكن لم أكف عن أكلها بعد ذلك. وأعظم الكوارث التى لحقت بعمنا أبوحسن أن علبة الدوسرة تبعه أصابها البلى فانخرمت ولم تعد تصلح لطهى الطعام وكان يجبرنى على القسم بأغلى المقدسات أن أحضر له معى علبة دوسرة من الخارج، وكنت أحضر له معى علبة بسكويت من السوق الحرة بمطار لندن، يعطى ما بداخلها لأى عابر سبيل ويحتفظ بالعلبة الدوسرة، ولكنه صادف مشكلة أخرى هى عدم وجود بط بلدى مزغط كالذى كان يقوم بتربيته فى الشارع الذى يسكن فيه بعد أن تحول الشارع إلى سويقة، ولم يعد فيه مكان لقدم، وأصاب الوهن خالتى أم حسن التى كانت تتولى تزغيط البط حتى يصبح الذكر منه كسمكة العجلة فى نهر النيل عند السودان. ولكن عندما حدثت الهزيمة عام ١٩٦٧ واضطر أبوحسن إلى الهجرة من الإسماعيلية، عاد إلى أكل الدوسرة لأنه سكن فى قرية سندوب على مرمى حجر من المنصورة. وكنت أهتف كلما رأيت أبوحسن سعيدا

بعد أكل الدوسرة . . صحيح مصائب قوم عند قوم فوائد ولكن أبوحسن لم يكن سعيدا من أعماقه ، كان يتمنى أن يرى الإسماعيلية قبل موته . وكان يحلم بيوم من أيام الإسماعيلية قبل أن يفارق الحياة .

بعد حرب أكتوبر وبداية عملية التعمير فى مدن القناة، وعندما كان أهل الإسماعيلية ممنوعين من دخولها، استطاع أبوحسن أن يتسلل إلى هناك مع عائلته بحجة القيام بمهام وظيفته. وكان يشغل فى الواقع وظيفة وهمية، وهى وظيفة مفتش مساجد شركة « المقاولون العرب» بالإسماعيلية . وهى وظيفة أسندها إليه المهندس عثمان أحمد عثمان مقابل مرتب شهرى قدره ثلاثون جنيها كانت لها قيمة فى ذلك الزمان . وعندما عاد إلى الإسماعيلية كانت المدينة شبه خالية، واستطاع أبوحسن تربية البط من تانى. وذات مساء. . . لزم أبوحسن بيته وأشعل فحمتين وجهز المعسل وجلس يشفط أنفاسا من الجوزة لتعمير الدماغ. ثم وصلت علبة الدوسرة من الفرن البلدى، وأكل أبوحسن وحمد الله وشكره كثيرا، ثم استأنف شفط الجوزة ليحبس بنفسين. ويبدو أن دكر البط كبس على مراوحه فذهب فى إغفاءة ولكنه لم يستيقظ منها على الإطلاق. فقد امتدت النار من الفحم إلى ملابسه ولم تتركه إلا جثة متفحمة، بعد أن وجدت النار فى جسمه السمين مجالا صالحا للتوهج والانتشار. وهكذا مات عمنا أبوحسن يرحمه الله أول وآخر شهيد للدوسرة فى تاريخ العرب الحديث والقديم. ولا أعتقد أن هناك أملا فى ظهور الدوسرة مرة أخرى، بعد أن تحول البط إلى بط مزارع يحقن بمحلول الجفاف، وتحولت الأطعمة ـ بسبب المبيدات وحقن منع الحمل ـ إلى شىء يشبه أوراق الكرتون .

وذهب أبوحسن وأخذ الخير معه، ولم يترك لنا إلا حكايات وروايات وخرابيط! ولكن اختراع الدوسرة سيظل مكتوبا باسمه على قوائم الطعام فى جميع مطاعم العالم!

الصيت ولا الغنى!

حكمة الله أن الحيوان والطير أيضا يختار أكله ويتذوقه.. وهناك حيوانات نباتية وأخرى مفترسة تأكل اللحم الحى. وحكمة الله أيضا أن أقوى حيوانات الغابة هم أكلة النبات وليس أكلة اللحوم. الجاموسة هى أقوى حيوانات الغابة ووحيد القرن يأتى بعدها والفيل يأتى بعد وحيد القرن. ولكن بتجربة الحياة، الفيل هو أقوى المملكة النباتية مع أنه بلا قرون وبلا قرن، والسبب أن الجاموسة غبية ووحيد القرن أغبى منها.

ولكن وبالرغم من غبائها فلا يستطيع افتراس الجاموسة أسد واحد ولكن لابد من ثلاثة أسود واحد يهاجمها من الأمام وواحد من الخلف وواحد يقفز فوق ظهرها. ولكن هل هناك علاقة بين الغباء وأكل النبات؟ لم يستطع أحد تأكيد هذه النظرية، لأن الفيل مثلا ذكى رغم كميات الحشيش والبرسيم التى يتعاطاها. والأسد مثلا صاحب مزاج لايأكل من الفريسة إلاّ فخذها، أما بطنها فلا يقترب منها. لأن البطن هى مخزن كل الأمراض، والنمر يأكل الرقبة والأكتاف. ولكن الضبع يأكل كل شيء خصوصا المعدة والمصارين. وفى عالم السمك هناك أيضا سمك نباتى وسمك مفترس. على رأس السمك النباتى البلطى. ويقال إنه أكثر الأسماك عرضة للتلوث، وهو قول صحيح ومع ذلك فأكل السمك البلطى هو الذى ينجيك من شر التلوث. هل هى فزورة؟ أبدا.. ولكن بسبب أن عملية التمثيل الغذائى للبلطى بالذات لاتدع

السموم تتسرب أو تتوزع على كل أنحاء الجسم، ولكنها تخزن المادة الضارة فى الجهاز الهضمى وفى المنطقة الخلفية من النخاشيش. ولذلك تستطيع أن تأكل البلطى باطمئنان وتقرأ الفاتحة للسلطان!

وهناك سمك ناصح يعف عن أكل لحوم الأسماك، ولكنه يختصر الطريق ويأكل بيضها. وأكل البيض كما تعلمون هو خلاصة أنواع الأكل، والكافيار كما تعلمون هو بيض السمك. وفى استراليا يأكلون بيض التمساح، وفى أفريقيا وأسيا يأكلون بيض الثعبان.

وكما فى دنيا الإنسان هناك أيضا مايشبهه فى دنيا الحيوان والطيور. هناك بين البنى آدمين من يطفح الكوتة فى سبيل أبنائه، وهناك من يعيش أيامه على هواه ولا يرتعش له رمش إذا تشرد أولاده أو ماتوا جوعا. والنسر مثلا من النوع الذى يعيش عاما وبعض العام متفرغا لتربية وليده، يتناول جمع الغذاء مع الأم ويتناوبان الحراسة، ولايتركان وليدهما إلّا بعد أن يعلماه الطيران والصيد. وأنثى النمر هى التى تهتم بتربية ابنها، تطعمه وتدربه وتعلمه كيف يفترس، فإذا أتقن ماينبغى عليه أن يتعلمه، قامت هى نفسها بطرده لكى ينشىء لنفسه حياة مستقلة. وأحيانا يرفض النمر الصغير أن يفترق عن أمه، وتضطر الأم حينئذ إلى ضرب ابنها علقة سخنة يسيل فيها دمه حتى يضطر إلى الذهاب بعيدا عن أمه، لأنه إذا بقى إلى جوار أمه لايصلح ليكون نمرا، وإنما يتحول بعد قليل إلى قطة تفترسه الضباع والثعالب!

ولكن هناك حيوانات صايعة مثل القط، لايكتفى بإهمال أولاده ولكنه يأكلهم أيضا، ويتعشّى كل مساء بواحد منهم. وأنثى العقرب عندما تصل إلى الذروة أثناء الجماع تأكل الذكر، تأكله كله على بعضه، لأن من يكون السبب فى كل هذه اللذة لابد أن يكون هو نفسه لذيذا ومهضوما على رأى إخوانا الشوام، وهناك حيوانات تأكل السم ولايصيبها منه أى

شر. والثعابين تبلع الثعابين الأخرى دون أضرار، وبعض الناس تأكل دهن السمك للتخلص من دهونها وخصوصا .دهن الشريان (الكلسترول) .

وإذا كانت بعض أنواع الحيوان والطيور تضحى بالغالى والثمين من أجل ذريتها، فطائر السنونو يضحى بالحياة نفسها من أجلهم. إذا عجز عن الحصول على غذاء مناسب لفراخه، نقر صدره بمنقاره الحاد، واستخرج قلبه وأطعمه لهم!!

ولأن الأكل هو بترول الحياة، فكل حيوان يصطاد أكله ماعدا الأسد، ولكنه يشارك ويساعد أحيانا فى الصيد، وهو ضامن بالرغم من ذلك وصول طعامه إليه، بسبب كرم اللبؤة وحرصها على مده بالطاقة، لأن الأسد ليس مهمته تدبير الطعام للأسرة، ولكن مهمته الوحيدة هى الإنجاب، وإدخال السرور على قلب الست حرمه، ولذلك . . وبينما كل الذكور يتقاتلون على الأنثى، ستجد أن اللبؤة هى التى ستخوض معارك الهول دفاعا عن أسدها ولكى يبقى ملكية خاصة لها. وفى عالم الإنسان صنف بنى آدمين من فصيلة الأسد. هو صنف الغجر. فالغجرية هى التى تختار الرجل، ولذلك فهى تسعى من أجل المعايش، وستطعمه الشهد وتسقيه عصير الدوم (الدوم لايعصر) إذا أثبت كفاءته التى من أجلها اختارته من دون الرجال. حيوان آخر لايصطاد مثل الأسد. . ولكن لأسباب مختلفة . . الحيوان الذى لايصطاد أكله هو الضبع، والسبب أنه جبان ونتن، لايصطاد الأرنب لأن الأرنب له أظافر وقد يخربشه، ولايصطاد الماعز لأن الماعز لها حوافر وقد تضربه بالحافر فتبطحه. ولذلك يمشى وراء الحيوانات المفترسة كالمخبر النشيط الذى يتعقب المشبوه وعندما يصطاد الوحش فريسته ويأكل منها ما يحتاجه، ينصرف لحال سبيله تاركا ماتبقى من الأشلاء للضبع وجماعته. أما جماعته

فهم خليط من الطيور والحيوان. وأغرب شيء أن الضبع النتن يشاركه الجيفة طائر المفروض أنه ملك الطيور وهو النسر. إنه الآخر صايع وجربان ولا يأكل إلا الجيف وفضلات الوحوش، ومع أنه مشهور بالأنفة والكبرياء والعظمة، ولكنه الصيت كما يقولون ولا الغنى !

أما العلو والسمو والاستعلاء فهي صفات الصقر، فالصقر يصطاد فريسته بنفسه، وهو قادر على إلحاق الهزيمة بها مهما كان حجمها. ولأنه صياد وغاوى صيد لذلك استغله لوردات أوروبا ومهراجات الهند وأصحاب الذوق من أثرياء العرب فى صيد الطيور الموسمية، وهو يفرح برحلات الصيد بنفس القدر الذى يشعر به الإنسان، وسيجند نفسه لخدمتك فترة طويلة من الزمن، ولكن بشرط أن يأكل من الصيد أولا . ولذلك يحرص هواة الصيد على أن يكون معهم آلة حادة أثناء الصيد، فإذا تمكن الصقر من فريسته أسرعوا بذبحها وقدموها للصقر لكى يطعم منها أولا . أما إذا تغافل الصياد أو تناسى أو صهين أو غطرش عن هذه العادة المقدسة، فلن يصطاد الصقر مرة أخرى، ولن يمكث مع الصياد الذى يبخل عليه بصيده! فهو ليس خادم صيد ولا يصلح لهذه المهنة، ولكنه صياد لمزاجه ويصطاد ما يأكل منه. الصقر هو ملك الطيور بلا منافس. وأى طير سارح فى السما يخشى الصقر ويعمل له ألف حساب. ولو فشل فى الصيد مائة يوم فلن يهبط على بيته ولن يأكل من جثة، ولن يتذوق لحما لم يكن هو صائده. فإذا اشتدت الأزمة لجأ إلى قمة من القمم وظل بها حتى يموت. ولذلك قال المطرب الشعبى فى الصقر:

والصقر يعلى ويعلى وله همّات

يلف فى الكون ولايلقى وليف عَدَله

يموت من الجوع ولا ينزل على رمات !!

النزول على الرمة ليس من طبيعة الصقر، ولكنها وظيفة الضبع والنسر والغراب . . . بينما الإنسان يأكل لحم أخيه لو اضطره الجوع إلى ذلك . وحكاية الطائرة الأسبانية التى سقطت على قمم جبال الأنديز معروفة . هوت الطائرة على منطقة ليس فيها حياة، وقُتل بعض الركاب وعاش البعض الآخر، فلما جاع الذين كتبت لهم النجاة أكلوا زملاء الرحلة الذين انتقلو إلى رحمة الله !

وحدثنى صديق عربى صاحب تجربة وحكمة عن مأزق تعرض له مع شلة من أصدقائه وهم صبية . ضلوا طريقهم فى الصحراء وجاعوا فقرروا أن يأكلوا أحدهم، وتآمروا فيما بينهم على الانقضاض على الصديق وذبحه والتهامه. ولكن الذى حدث بعد ذلك كان أغرب من الخيال! . . .

حساء شبل الأسد !

اتفق الصحاب على أكل أحدهم ، واختاروا موعد التنفيذ عندما يخلد الجميع للنوم هذا إذا كان النوم يعرف طريقه للجائع ، وبالطبع كان الصديق الذى وقع اختيارهم عليه أضعفهم جسدا وأضعفهم عشيرة ، وهكذا حال الدنيا ، والويل للضعيف والغلبان والمقهور ورحمة الله على على عمنا أبوالعلاء المعرى نظر إلى الكتكوت المسلوق الذى وصفه له الأطباء وقال قولة صدق أصبحت مثلا :

استضعفـوك فوصفـوك فهـل وصفـوا لى شبـل الأسـد !

بالتأكيد شبل الأسد أكثر فائدة للمريض ، وشوربة شبل الأسد أكثر دسامة ، ولكن من يجرؤ من الأطباء على أن يكتب روشتة شوربة الأسد؟ وإذا جرؤ الطبيب فهل يجرؤ المريض على صيده وذبحه؟

ليس أسهل من الكتكوت وشوربة الكتكوت ليتناوله المريض والتعبان والذى أصابه وجع ! كان مع الجماعة سكين أمضوا وقتا فى إعدادها وترقيق حدها ، والغريب أن الضعيف المسكين اشترك فى إعداد السكين التى سيذبح بها . ولكن قبل موعد النوم بقليل تراءى لأسماعهم صوت رهيب صادر من جوف الليل كان الصوت لذئب جائع وهائج ومجنون وربما رائحة الإنسان وصلت إلى خياشيمه فازداد جنونه وهياجه ، وماهى إلاّ لحظات إلاّ وصار الذئب فى مواجهتهم . نحن الآن على أبواب معركة ضارية بين ذئب جائع يبحث عن شىء يأكله ومجموعة من الشباب

يعانون الجوع ويبحثون عن عشوة تنقذهم من الهلاك وعندما بدأت المعركة كانت نتيجتها محسومة، سبعة ضد واحد، أشعل أحدهم نارا واستخدم الثانى عصا طويلة وتسلح الثالث بالأحجار وهجم الرابع بالسكين وكانت النار هى صاحبة الكلمة الأولى فى المعركة ارتعد الذئب من وهجها ولهبها وتقهقر مذعورا فهوى عليه صاحب العصا ثم قذفه صاحب الحجارة فى رأسه ثم تناوشه صاحب السكين فى ساقه ثم قذفه أحدهم بحفنة رمل أصابته بالعمى المؤقت، وهكذا انغرزت السكين فى رقبته وانهالت العصا على رأسه وانهمرت الحجارة على جثة الذئب الجائع التعبان ولم تمض لحظات حتى كان الذئب كله على جمر النار ورائحة الشواء تملأ الصحراء .

وهكذا نجا الصديق الضعيف من الذبح وافتدته الأقدار بذئب كان عظيم الجثة ومسخه الجوع فأصبح أشبه بمريض أصابته البلاجرا! وأكل الأصدقاء وشبعوا واستغرقوا فى النوم ولم يستيقظوا إلاّ بعد أن لسعتهم الشمس فى منتصف النهار . وهكذا أثبتت شلة الأصدقاء أن كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلاّ ماحرم إسرائيل على نفسه وحتى ماحرمه على نفسه يمكن السماح به عند الضرورة، وإذا حبكت الضرورة يمكن للإنسان أن يأكل الذئب مع أنه فى كل القصص وعبر كل العصور كان الذئب هو الذى يأكل الإنسان!

المضحك فى الأمر أن أحد هؤلاء الشبان الذين حضروا وليمة الذئب، ممنوع عليه الآن أكل اللحم ومسموح له بأكل الدجاج المسلوق فقط مع الأرز . . ويا سبحان الله . . مغير الأحوال . الذى هضمت معدته لحم الذئب لم تعد تقوى الآن على هضم لحم الضأن، والولد الساحر عبدالحليم حافظ الذى أكل معى ساندوتش كشرى عاش حياته بعد ذلك على الخضار المسلوق، وعمك الحاج إبراهيم نافع الذى كان لايأكل

إلاّ الضلع بقرقوشته أصبح الآن لايأكل إلاّ الكفتة! والمعلم رضا الذى كان يكسر عظم العجل بأسنانه ليمص النخاع صار من أكلة الكتاكيت المسلوقة المخلية من العظام! والعبد لله الذى كان يفتح نِفْسه بكوز مية طرشى بالدقة والخل ، أصبح يعوى طول الليل إذا لحس لحسة ملوخية أو إذا لهط لهطة فتة . الأكل هو علامة الزمن والزمن متقلب وغدار وحكمه نافذ ولاحكم محكمة والبنى آدم يأكل السوائل فى طفولته ويأكل الخشب فى شبابه ويعود إلى السوائل عندما تضمر العضلات وتجف المعدة وتطقطق العظام وتصبح اللثة عارية كرأس الأصلع ، وها أنذا الآن ملطشة للدكاترة ومزرعة للأدوية وأمنيتى الوحيدة أن أعود إلى كوز الطرشى وسندوتش الكشرى وأعواد القصب التى كنت أمصها بقشرها كسلا وإيمانا منى بأن قشر القصب يحمل من الفوائد ماتعجز عن إدراكه الألباب ، الأكل يكون بحساب والشرب بحساب .

وأسوأ الأزمنة هى التى لايأكل الإنسان فيها مايعجبه ولكن مايعجب الأطباء وأكبر مصيبة تصيب الإنسان أن يسلم نفسه للأطباء ، والطبيب بنى آدم يخطئ ويصيب ، وإذا استسلم البنى آدم لهم فتح على نفسه فتحة لايمكن سدها والعبد لله له تجربة فى هذا الأمر . فقد ذهبت إلى الدكتور حسام بدراوى أشكو له من السكر فنصحنى بإجراء فحص شامل على كل شىء ثم اكتشفوا أننى أعانى من تضخم فى الكبد وحصوة كبيرة ـ فى عين العدو ـ تنام مستريحة داخل المرارة . ومرارة العبد لله كانت دائما ضعيفة وحيطة مايلة ، ولكنها كانت صاحبة الفضل فى إقلاعى عن شرب الخمر وحتى البيرة ، ونصحنى حسام بدراوى بترك الحصوة مكانها وعدم الاهتمام بها لأنها كبيرة ولاتتحرك ، فاذا تحركت تكون الجراحة لازمة لانتزاعها من مكانها ، ولكن الدكتور فايز بطرس فى لندن نصحنى بإجرائها وأنا فى كامل لياقتى لأنها قد تتحرك عندما يكون العبد لله متوكئا على العصا ونموذجا لقول الشاعر: لولا مخاطبتى إياك لم ترنى!

ولأن الكبد تضخم فقد ذهبت إلى صديقى القديم عمنا وأستاذنا الدكتور يس عبد الغفار وهو أول طبيب فحصنى وأنا فى مقتبل الشباب، ثم ذهبت بعد ذلك إلى عمنا الدكتور أنور المفتى، ثم عدت إلى الدكتور يس بعد وفاة عمنا المفتى، وأمسك عمنا يس بورقة كتب عليها فحوصات الكبد وتحاليل معينة لمعرفة فيروسات C وB وA. التى تصيب الكبد وتدمره وخرجت من عند عمنا يس وفى نفسى صراع رهيب استمر عدة أيام.

هل أذهب لإجراء البحوث والفحوص؟ أم أمزق الورقة على أساس أن ماقدر سيكون، والمكتوب على الجبين لازم تراه العين؟ ثم اهتديت إلى الحل الأمثل عملا بقول سيدنا على بن أبى طالب: سل فؤادك.

مزقت الورقة ولم أذهب لإجراء أى بحوث أو فحوص ولكننى ندمت بعد ذلك لأن كل الأفئدة ليست كفؤاد ابن أبى طالب، هناك أفئدة خربانة وأفئدة مش مضبوطة وأفئدة حكمها مش ولابد، وعندما أبلغت الدكتور عبد المعز بالقرار الذى اتخذته. سألنى: ليه؟ فأجبته بأنه كان نتيجة لتجربة طويلة مع جدى الشيخ خليل يرحمه الله عاش مائة وعشرين عاما إلاّ قليلا لم ير الطبيب إلاّ فى العام الأخير من حياته، وكان الدكتور هو عبد المعز نفسه، ولم يعطه الدكتور عبد المعز إلاّ المقويات فقط.

لم يكن جدى الشيخ خليل محتاجا لدواء وما أصابه كان نتيجة مرور الزمن. لم يكن محتاجا إلاّ لجرعة من الفيتامينات تساعده على الاندفاع عدة خطوات أخرى على الطريق، ولم يمرض فى حياته إلاّ بالبرد وبالزكام وبوجع الأسنان. لم يعرف السكر أو الضغط الطريق إليه، ولم يتسلل الفشل إلى كلاويه أو الفيروس إلى كبده، لأنه كان يأكل طعاما بلا كيماويات، ويشرب مياها غير مختلطة بمياه المجارى، ويتنفس هواء لم يفسده عادم السيارات، لأن قريته لم يكن يمر بها أى نوع من الموتورات

وأرضه لم تعرف أى نوع من الأسمدة إلا الأسمدة العضوية . وكان رغيفه من القمح ويتم نضجه فى فرنه داخل الدار ، وكانت دجاجته من عشته وكان أكلها من نبش التراب ، وكان حليبه من الجاموسة وسمنته صنع يد ستى عزيزة وهى زوجته الرابعة التى عاشت معه حتى النهاية ، . وعندما مات جاءه ملاك الموت وهو نائم . وهو لم يمت ولكنه توقف عن الحياة . القلب سئم النبض المستمر على مدى العقود الاثنى عشر ، والدم لم يعد يطيق التدفق خلال الدورة الدموية والمخ أصابه الملل من كثرة التفكير والتدبير.

توقف القلب أولا ثم استجاب له المخ ثم توقفت الدورة الدموية، وقدر للشيخ خليل أخيرا أن يستريح بعد أن امتلأت القرية ضجيجا وزحاما وفراخا من الجمعية وخبزا من المخبز الآلى . يبدو أن الشيخ خليل نفسه سئم الحياة بعد أن أصابها التغيير إلى الأسوأ ، والقرية تحولت إلى ورشة ، ومساكنها ودروبها تحولت إلى جراج . لم يعد لها وجود تلك الدنيا التى كان يعرفها الشيخ خليل وعاشها بانسجام ولذلك رفع قبعته فجأة وغادر دنيانا فى سلام .

ولكن . . هل يستطيع العبد لله أن يقطع نفس الطريق الذى قطعه الشيخ خليل؟ لا أظن . . فمصارينى غير مصارينه ، وكبدى غير كبده ، ومعدتى غير معدته ، وطعامى يختلف عن طعامه . وأنا الآن لا أطعم إلاّ خليطا من عصير الكيماويات ، ولا أشرب إلاّ مياه البرك مخلوطا بالمجارى ، ومائدتى ليس عليها إلاّ اللحوم الفاسدة والفراخ المحقونة بمسحوق حبوب منع الحمل والزيتون المدهون بورنيش الأحذية .

لم يهزمنا الاستعمار الإنجليزى ولم يهزمنا العدوان الإسرائيلى ولكن هزمتنا أغذية السيد المستورد عديم الذمة قليل الأصل وطاردونا بسلعهم المغشوشة على شاشة التليفزيون وربحوا الملايين وقتلوا الألوف من شعبنا الله يخرب بيوتهم ويكب زيتهم .

غاندى ومعزته!

زمان .. وأيام الشباب كنت عديم الوزن، لأننى كنت عديم اللحم، وكانت عظامى بارزة كأنها أسلاك شائكة حول بعض المعسكرات! وفى المدرسة الابتدائية كنت لعيب كورة محترم، ومشهور ويشار لى بالبنان وبالنعال! وعندما ذهبت إلى المرحلة الثانوية، أبدوا إعجابهم بلعبى، ولكنهم أبدوا احتقارا لحجمى! ولذلك ارتديت ملابس الكورة واكتفيت بالجلوس على الخط وتشجيع اللعيبة أثناء اللعب وتوزيع البرتقال عليهم بين الشوطين! وعندما اشتغلت بالصحافة كان منظرى يوحى بأننى مريض بسل العظام هربان من مستشفى قصر العينى، وطالب حسنة منك ياكريم . . ياحليم . . ياستار!

وذات رحلة مع عبد الناصر إلى دسوق فى بداية الثورة ، وكنا مجموعة من الصحفيين الشبان، وكلنا مرضى ومرهقون وعجاف، انهال علينا محافظ كفر الشيخ ضربا عندما رآنا نحجل خلف عبد الناصر كالغربان، فقد ظن أننا شلة عيال صياع، وأننا جئنا خلف البطل نهتف بحياته وحياة الثورة المباركة ورجالها الكرام!

وانتقمنا من المحافظ انتقاما رهيبا، وكان رجلا من باشوات العهد الملكى، وكان فى حجم الفيل، وشكله كالطاووس، أحمر الوجه، منتفخ الأوداج، شديد الصلف والغرور والكبرياء! وكان اسمه محسن بك عزت، ولكننا حرفنا اسمه فى جميع الجرائد الصباحية القاهرية وكتبنا أن أعيان دسوق كانوا فى استقبال عبد الناصر وعلى رأسهم عبد الصبور بك

عبد البصير محافظ كفر الشيخ! ويومها بكى الرجل من شدة القهر، وحاول الاعتذار لنا دون جدوى ، مع أن الحق كان معه ، فقد كان منظرنا ولا منظر جرابيع شاردة في صحراء العرب بعد عام من الجفاف!

ولذلك ظللت العمر كله أحلم بأن يكون لى كرش يتدلى أمامى نصف متر، وأن يكون لى لغد يتدلى تحت ذقنى وزنه عشرة أرطال! وأن أتنفس بصعوبة نتيجة اللحم والشحم، أحجام وأكوام بعضها فوق بعض!!

وكان طمعى فى جلب المهابة والاحترام يزداد أكثر . فالطمع فى ذبحة صدرية تصيبنى وتجعلنى ألهث ككلب عطشان، وصار اقتناعى لا حد له بأننى بكرش ولغد وذبحة محترمة، سأحظى بالهيبة والرفعة وعظيم الاحترام. ويبدو أن الله استجاب لدعائى. فبرز لى كرش، وتدلى لحضرتنا لغد، وصرت ألهث بعد كل خطوة أخطوها، ولكنى لم أحظ إلاّ باحترام البواب! قُتِل الإنسان ما أكفره!

زمان ضقت بالحياة ، لأننى كنت فى حجم غاندى، واليوم أتمنى أن أعود فى حجم معزة غاندى!

وياسبحان الله . . عندما كانت بطنى فى ظهرى، ورقبتى فى حجم السمسمة، كان يحسدنى أصحاب الكروش واللغود. وعندما صرت من أصحاب الكروش واللغود، صرت أحقد على المسلولين والمقشفين! وزمان كان الأطباء حريصين على زيادة وزن العبد لله بالمقويات والفيتامين . . واليوم يحاول الأطباء العودة بوزنى إلى أيام زمان . وحلمهم أن أعود كما قال الشاعر: لولا مخاطبتى إياك لم ترنى. والعبد لله يحاول معهم بالمشى أحيانا، وبالجرى أحيانا، وبالصوم عن الطعام فى بعض الأحيان، ولكن لا المشى ينفعنى ولا الجرى يشفع لى، ولا الصوم يعصمنى من الدهون والشحوم. وبالرغم من الرجيم والتمرينات

الرياضية ، التى تؤديها خالتى ذكية فى برنامج صباح الخير يابهية ، فالعبد لله يذهب أول كل شهر إلى الترزى لتوسيع البدل التى ضاقت ، ولتطويل البيجامات التى قصرت ، والجلاليب التى انحسرت . ولكن سعى العبد لله من أجل تحقيق الحلم لايتوقف ، والأمل فى تحقيق ذلك لاينقطع ، ويعيش العبد لله الآن فى حلم طويل ومتصل . والبنى آدم يعيش حياته يحلم ويأمل ، والحياة قصيرة لولا فسحة الأمل . وكل الناس تعيش وتحلم ، وكلهم يجرى ويعرق من أجل تحقيق الأحلام ، وأحيانا يصيب وأحيانا يخيب . ولكن أغرب المصادفات أنه ـ غالبا ـ عندما يتحقق حلمه يسقط ميتا فجأة وبلا مقدمات . مات وكأن حلمه كان هو الخيط الذى يشده إلى الحياة ، فإذا تحقق الحلم انقطع الخيط وضاع فى الكازوزه ياولداه!

أعرف ممثلا مغمورا داخ السبع دوخات فى حياته . . ولم يكن يحلم بأكثر من بيت يستره وامرأة ترضى به زوجا ، ووجبات طعام منتظمة ، ودخل يعينه على ركوب الترام! وفجأة . . تحقق له كل ما كان يحلم به ، وجاء الفرج وهو فى خريف العمر . وعثر على شقة تأويه ، والتقى بامرأة شابة ارتضته زوجا ، وضمن دخلا يسمح له بركوب الترام والأتوبيس ، وصار فى مقدوره الحصول على صندوق سجاير كل يوم لزوم التدخين! وعندما جلس فى بيته وضم زوجته إلى صدره ، وأشعل السيجارة وسحب منها نفسا عميقا ، خرجت روحه مع الأنفاس التى لفظها من صدره ، ولم ينعم الممثل المغمور بحلمه الذى تحقق إلاّ فترة امتدت عشرة أيام فقط لاغير!

وأعرف محاميا شابا كان يعانى من ضيق ذات اليد ، وكان يحلم برصيد يكفيه شر العمل والسعى على لقمة العيش ، وابتسمت له الحياة عندما اختارته الصدفة ليكون وكيل أعمال البوليس الدولى فى سيناء ، وصار

المحامى مليونيرا فى ظرف ثلاث سنوات، وعلى الفور قام بتصفية مكتب المحاماة الذى كان يديره، ووزع الثروة على ولديه، وأبقى لنفسه ما يكفيه للفسحة والتجول عبر القارات، وقرر أن يقوم بأول جولاته فى أمريكا اللاتينية، وحجز التذاكر واستخرج الشيكات السياحية المطلوبة، واشترى الملابس المناسبة للشتاء والصيف. وقبل الموعد المحدد لبدء الرحلة بيوم واحد، سقط المحامى الثرى ميتا بدون أسباب!

ولقد حدث نفس الشىء مع نجم مشهور هو أنور وجدى. وكان أنور وجدى فقيرا فى شبابه، لدرجة أنه اضطر إلى التهام قطعة عجين ليسكت عصافير بطنه، وكان ينام أحيانا فى كواليس المسرح، وأحيانا يفترش الأرض ويتغطى بنجوم الليل. وكان حلمه الوحيد أن يصبح يوما ما مليونيرا ينثر الجنيهات ويوزع الشيكات. وقيل له يوما إن الممثل فلان يملك مليون جنيه ويعانى من مرض السرطان، فقال.. اتمنى أن أحل محله، أمتلك المليون وأعانى من السرطان! وتحقق حلم أنور وجدى، فأصبح ثريا ألمعيا ومليونيرا بنكيرا، ومريضا مرضا خبيثا، حرمه لذة الأكل، وحرمه نعمة النوم، ثم ما لبث أن ترك الدنيا كلها وتوكل على الذى لاينام!

وأعرف شاعرا بائسا كان يتخذ من قهوة إيزافتش محلا مختارا له خلال النهار والليل، وكان يرتدى على مدار العام بدلة تيل بيضاء وحذاء أبيض وقميصا معجونا بالتراب.. ثم حدث أن التقى الشاعر بثرى عربى من دول الخليج، أنشد فى عظيم خصاله وكثير أمواله قصائد ولا قصائد المتنبى فى سيف الدولة. وأصبح الشاعر ثريا ولا أوناسيس، أنيقا ولا عمر الشريف، وأثرى من وراء قصائده إلى الدرجة التى أتاحت له شراء قصر لنفسه على ضفاف بحيرة جنيف. وغادر الشاعر مصر واستقر فى عاصمة سويسرا. وفى أول يوم دخل فيه قصره، وجلس فى الشرفة،

ومسح بنظره سطح بحيرة جنيف ، وبعد أن انتهى من تدخين سيجارته المفضلة وارتشاف آخر رشفة من كأسه ، فارق الحياة!

ولذلك يعمر أصحاب الأهداف البعيدة والأحلام المستحيلة، ويموت أصحاب الأحلام الصغيرة والأهداف القصيرة. ولذلك العبد لله يتمنى عدم تحقيق حلمه إلا بعد مائة عام، وأن يزداد كرشى اتساعا ، ويزداد لحمى ترهلا ، ويزداد لغدى ترجرجا ، وأن أصبح فى حجم الممثل فتله يرحمه الله .

وأدعو الله أن يفشل الأطباء فى مسعاهم ، فلا أعود أبدا رشيقا كما كنت ، أو جلدا على عظم كما كانت حالى فى الأيام الخوالى، فما أحلى الحياة على أى هيئة وبأى شكل، وما أبغض الموت ولو كان حضرتك فى خفة الغزال ورشاقة محمود حميدة وأناقة كمال الشناوى ولياقة حمزة الجمل .

ولكن الكارثة الكبرى أن الناس تموت أحيانا بالسمنة، وتموت أحيانا بالسل، وكل الطرق تؤدى إلى المقابر، سواء كنت من أكلة مطعم مكسيم أو أكلة صناديق الزبالة . والحلم بالبدانة مثل الحلم بالنحافة، كلاهما ينتهى بالموت، ولذلك العبد لله يبحث عن أحلام بعيدة المدى، ويتعلق بأمل لايمكن تحقيقه إلا صباح يوم القيامة . هل تعلمون بماذا يحلم العبد لله الآن ؟ أحلم بأن أصبح بطل العالم فى الملاكمة، وأحلم بالحصول يوما ما على كأس العالم فى كرة القدم، وأحلم أيضا بقيادة جيش يلحق الهزيمة بجيش الولايات المتحدة الأمريكية فى معركة خاطفة، وأحلم أيضا بالعثور على كنز يكفى لتسديد ديون مصر وديون العبد لله . ولكن الحلم الذى يقلقنى الآن ويؤرقنى هو أن أتمكن يوما ما من الزواج من ملكة جمال الكون، وبشرط أن تتزوجنى عن حب، وأن تتعقبنى فى كل مكان أذهب إليه، وأن تستجيب لأوامرى وتطيع إشاراتى، وأن تكون بنت ناس ومن عائلة محترمة وأسرة ثرية، وتجيد طبخ الملوخية وإعداد

لحمة الرأس والفتة بالثوم والخل، وأن يكون معها فلوس تغطى مصاريف العبد لله، وما يكفى أيضا للقضاء على الجوع فى أفريقيا.

والعبد لله يعتقد أن السعى لتحقيق هذا الهدف هو الذى سيبقينى على قيد الحياة، بالرغم من السكر الذى ارتفعت نسبته فى الدم، والملح الذى ترسب بالعظام، والمياه البيضاء التى غرق فيها البصر، والخشخشة التى تصدر من الصدر، والكركبة التى تحتدم فى المصارين. وبالرغم من نصائح الأطباء للعبد لله بالإقلاع عن أكل اللحوم والخبز والنشويات والسكر وعدم التدخين وعدم السهر وعدم الإجهاد وعدم الكلام وعدم الكتابة وعدم التركيز وعدم التفكير وعدم القراءة وباختصار .. إنهم ينصحوننى بعدم الحياة! ولكننى وبالرغم من ذلك سأحيا، لأن أحلامى لم تتحقق، وأتمنى على الله عدم تحقيقها حتى سنة ٢٩٠٠ إن شاء الله!

عن الكوارع والقواقع!

الله يرحمه ويحسن إليه جدى الشيخ خليل الذى طالت أيامه على الأرض إلى مايقرب من ١٢٠ سنة، وعاش فى تبات ونبات وخلف صبيانا وبنات وعاش حتى شاهد الجيل الخامس من أحفاده.. الله يرحمه.. فقد كان ينسب كل خلل فى الحياة إلى وابور الجاز البريموس، وعندما شاهد البوتاجاز أيقن أن الحياة انتهت! وظل مصرًا على أكل الطعام المطبوخ فى نار من صنع ربى، بالحطب وفى الفرن البلدى الذى ينتصب كقبة الشيخ فى فناء الدار. وكان ينضج البيض فى تراب المحمة. أى فى الرماد المتخلف من حريق الفرن. وكان ينضج قهوته على قوالح الذرة. وأقسم لكم أننى لم أتذوق فى حياتى طعاما أشهى من طعامه، ولم أرشف قهوة فى روعة قهوته، ولكن السوق لم يهتم كثيرا بأسلوب جدى الشيخ خليل، فتنوعت الوسائل لإنضاج الطعام ولإعداد الشاى، حتى توصلوا أخيرا إلى الميكروويف.. وهى طريقة تنضج الطعام فى دقائق، وتعد الشاى قبل أن يرتد إليك طرفك.

قالوا إنها الطريقة المثلى لإعداد وجبات الطعام فى عصر البيزنس والبورصة وبنوك التقوى والبركة وشركات توظيف الأموال. ولكنهم عادوا بعد قليل فسحبوا الأجهزة من السوق وتوقفوا عن إنتاج الميكروويف بدون إبداء الأسباب، ولكن السر انكشف بعد ذلك فإذا بطعام الميكروويف يسبب السرطان، ويدمر الجهاز الهضمى، وإذا بنظرية الشيخ خليل

تنتصر فى النهاية ، فليس أكثر أمانا من استخدام الوسائل الطبيعية . النار من الحطب أو الخشب أو روث البهائم . والأوانى من الفخار أو من النحاس . وكل شىء ينضج على مهله ويأخذ وقته ، وإذا كانت العجلة فى كل شىء من الشيطان ، فهى فى عملية إعداد الطعام من عزرائيل ! ولذلك يلجأ الناس الآن فى البلاد الغنية إلى هجر المدن وأجهزتها الكهربائية إلى الخلاء والعودة إلى استخدام الوسائل القديمة . فى اليابان يخرجون إلى الغابات ويقضون أسابيع داخل الغابة ويتصرفون كما كان يتصرف الإنسان البدائى . قضاء الحاجة فى الخلاء والجلوس على قرافيصهم ، وإنضاج الطعام على أعواد الشجر الجافة . وجلب المياه من مساقطها الطبيعية ومن الأعماق البعيدة . وفى انجلترا يذهبون إلى الريف ، ويعيشون أسابيع فى المزارع ، يحلبون البقر بأيديهم وكما كانت تفعل ستى هدية ، ويشوون الفراخ على نار القش المتخلف من حصاد القمح ، ويشربون من الآبار . وفى اسكتلندا يصعدون إلى الجبال يصطادون أكلهم أو يخبزون خبزهم ويعيشون عيشة الإنسان الأول . لا بوتاجازات ولا ثلاجات ولاسخانات كهربائية . ولكن فى بلدنا اختلف الحال عنه فى جميع أنحاء العالم حتى فى الريف دخلت الغسالات والبوتاجازات والثلاجات الكهربائية وفى الصيف الماضى دعانى الحاج رفعت السعدنى عمدة نتمة على كوب شاى تم إنضاجه على سخان كهربائى . ودعانى صديق فى الإسماعيلية على خبز بلدى مخبوز فى فرن صاج من مخلفات اليهود فى سيناء !

ولكن نظرية الشيخ خليل معوض تقابلها نظرية أخرى تطلب الطعام فى أى مكان وبأى طريقة ، شرط أن يكون الطاهى ماهرا . على رأس أتباع هذه النظرية المهندس على والى وزير البترول الأسبق . إنه أكيل ممتاز وهو يأكل أى شىء وكل شىء ماعدا السكر والخبز. ثم بعد ذلك . . . .

مرحبا بطبق كوارع أو طبق قواقع ، صحن كرشة أو سمكة قرش . الشرط الوحيد أن يكون الطباخ على دراية بمهنته ، وأن يكون موهوبا وليس مجتهدا. وهو يحفظ عناوين كل المطاعم الجيدة ، وليس بالضرورة أن تكون المطاعم الجيدة مطاعم مشهورة . وهو يؤمن بأن الأكل لايضر البنى آدم إذا كان معتدلا، لا يدخن ولا يسهر حتى الفجر. وإذا كان عمنا الدكتور حليم جريس يؤمن بأن الذى يتعشى لحوما أو أسماكا أو فتة كوارع فى منتصف الليل ، فهو حتما من سكان المقابر فى صباح اليوم التالى ، فإن عمنا على والى يأكل أى شىء فى منتصف الليل حتى القواقع وحتى الأعشاب الصينية وحتى الكافيار الروسى!

وهناك نظرية ثالثة بين الشيخ خليل والوزير على والى وهى نظرية أحمد الكليفتى . وهى نظرية تقول : كل أكل ابن آدم مفيد خصوصا إذا كان دسما . وهو بالرغم من أعوامه الـ ٧٩ كان يتبرع بالخدمة فى موائد الرحمن التى يقيمها الحاج إبراهيم نافع فى رمضان، مقابل أن يمنحه الحاج إبراهيم الخلاصة التى تترسب فى قاع الحلة من عملية تحمير اللحم بالسمن. ولو استشرت أى طبيب أمراض باطنة أو أخصائيا فى الجهاز الهضمى سيؤكد لك أن هذا الطعام كفيل بقتل فيل شاب، ومع ذلك فعمك أحمد الكليفتى كان يأكل يوميا كمية تكفى عشرة أفراد من هذه الخلطة . . . ولاخطورة على الإطلاق! وعلى العكس . . كان الكليفتى يزداد شبابا وحيوية عقب كل رمضان . . على طريق الكليفتى، فإن عمك سمكة ـ قبل أن تهجم عليه الأمراض ـ كان يلتهم كل ما يصلح للأكل دون تدقيق وأحيانا كان يأكل الحلو . . فاكهة ومهلبية ، ثم يعود إلى التهام هبر اللحمة المسلوقة أو المحمرة ويدعم ذلك كله بالمخلل! فالأكل عنده هو أن تمضغ وتبلع، وكل الأصناف والألوان مطلوبة ومقبولة وبدون ترتيب! لأن بروتوكول الطعام ليس أصيلا ولكنه

مستحدث . . فقد دخل فى حياة الإنسان بعد أن سكن المدينة وترهل وأصبح يأخذ بقشور الحياة وليس بجوهرها ، وهو لايفهم لماذا الشوربة أولا ثم اللحم ثم المهلبية والكنافة أو الفاكهة ثم الشاى فى نهاية الأمر؟ ولم يكن لدى العم سمكة مانع من تناول الموضوع بالعكس. وما المانع من أن يكون الشاى أولا ثم الفاكهة ثم اللحم ثم الشوربة؟!

وبين كل هذه النظريات هناك نظرية أخرى كان يطبقها المهندس عبد الحميد حمدى أو عبد الحميد حريقة كما كان يناديه الأصدقاء المقربون. نظرية عبد الحميد حريقة تقول إن الطعام شر لابد منه. والإنسان الحصيف هو الذى يبعد عن الشر ويغنى له! وكل وجبة لا تأكلها تضيف إلى عمرك. وأن الجوع هو عدو عزرائيل الأول ، بدليل أن الفقراء يعيشون أطول من السادة أصحاب الكروش. ولذلك كان عمك حريقة يفطر شايا فى الصباح ، ويتعشى ساندويتش جبنة رومى ، وبين الإفطار والعشاء قد يأكل برتقالة أو موزة أو طمطماية . . وبشرط عدم التهام أكثر من حباية واحدة فى كل الأحوال . وعاش عمك حريقة حتى اقترب من الثمانين وكان فى صحة جيدة ومزاج رايق ومرح وضاحك فى كل الأوقات!

وهذه النماذج تثبت أن سكة أبو زيد كلها مسالك، وكل الطرق تؤدى إلى روما، وأن الجوع والتخمة قد يؤديان إلى الموت وقد يؤديان إلى أرذل العمر. ولكن لو كانت مسيرة الحياة بالاختيار الحر، لاخترت مسيرة جدى الشيخ خليل، أعيش كما الإنسان الأول ، أطهى طعامى على الحطب، وأنضج البيض على تراب المحمة، وأخبز العيش على بلاطة الفرن وأضع براد الشاى على قوالح الذرة، وأزرع الملوخية فى الأرض المجاورة، وأربى الفراخ فى فناء الدار، وأترك البط يبلبط فى مياه الترعة، وأحلب البقرة بيدى لابيد عمرو ، وأشرب الماء من القلة ، فليس أمتع ولا أروع من العودة إلى الطبيعة، وخيبة الله على مياه الثلاجة وطعام البوتاجاز وفراخ

الجمعية ولحمة الحرامية المجلوبة من خارج الحدود. . اللحمة التى تأكلها فتصبح من زباين ماكينة غسيل الكلى فى مستشفى المعلم الدكتور غنيم بالمنصورة ، أو تصبح عضوا مترددا على معهد الكبد تبع المعلم الدكتور يس عبد الغفار بالمنوفية!

زمان. . أيام اللحمة الطازة. . من الجزار إلى الحلة لم يعرف الشعب المصرى طريقه إلى طبيب الكبد . وكان الجزارون يذبحون ما يحتاجه الناس وليس ما تحتاج إليه الثلاجة والناس تفرح باللحمة الملفوفة فى ورق سيلوفان، مع أن الورقة نفسها من أسباب فساد اللحمة ، لأنها تحتاج إلى معالجة خاصة يجيدها المنتج فى بلاد الخواجات، ومن لا يجيدها هناك فالمحكمة فى انتظاره وحراس السجن على أهبة الاستعداد للترحيب به، ولكن فى بلادنا. . البساط أحمدى، وبلاش تفتش فى لقمتك. وتجارة اللحمة المستوردة تحقق ربحا أضعاف ربح المخدرات والعبد لله يعرف أحدهم وكان على باب الكريم، ولكنه خلال سنوات قليلة صار يمتلك اسطبلات فى نادى السباق، ويخوتا فى البحر .

والمصائب لا تأتى فرادى على رأى المثل. والمصريون الغلابة لايعانون فقط من سوء الطهى، ولكن يعانون أيضا من فساد الصنف. . وأخطر من فساد الصنف ، فساد الضمير، وأسوأ من فساد الضمير فساد الذمم! بتوع الجمرك لهم جعل ، ومفتش الصحة له نصيب ، ومفتش التموين له معلوم، ووزير الصحة طبيب وعلى نياته، ولذلك نسب فى بيانه (التاريخى) فساد اللحمة إلى بخل البقالين وأصحاب السوبر ماركت، ليه؟ لأنهم يقطعون النور عن الثلاجات فى فترة الليل، فتصاب اللحمة بالعفن وتصبح غير صالحة للاستهلاك الآدمى، مع أنها كانت صالحة فى فترة النهار!!

ولكن لماذا البكاء على فساد اللحمة فقط؟ مع أن المواصلات فاسدة والمرور أفسد، والشارع المصرى أصبح جزءا من مؤامرة عالمية للإطاحة بالجهاز الهضمى عند المصريين. ومعذرة لأننى نسيت أن أقول لكم.. لا يهنأ الجهاز الهضمى بطعامه وسط مجتمع مشحون بالتوتر والضوضاء وهواء ملوث بالأتربة والرمال، ومياه تختلط بالمجارى وتجرى مع مخلفات المصانع، وحوادث إرهابية تأخذ البرىء مع المذنب، وتضرب الصالح والطالح، وتطعن نجيب محفوظ فى الرقبة وتصفح عن المعلم مصطفى مرزوق والمعلم كتكت!

من يأخذ بيد العبد لله من غابة الانفتاح والانبطاح، إلى عصر البداوة والنقاوة والبال الهادئ والعيش الرغيد!؟

الضيوف .. والضيافة!

وإذا كان الأكل له فوائد وله مضار ، فهو أيضاً صاحب فضل فى كشف سلوك الناس وعاداتهم، روى الملك الحسن فى مذكراته عندما كان صبيا، أنه فى رحلة النفى مع والده الملك محمد الخامس إلى جزيرة مدغشقر، وهى الرحلة التى استغرقت أكثر من عشرين ساعة طويلة ومملة. ولما كانت الطائرة حربية، فقد كان الطعام الذى قدموه للملك وأولاده حربيا أيضاً، قطع بسكويت مع الشاى. وبعد وصولهم إلى الجزيرة قدموا لهم طعام العشاء. ولم يأكل الملك محمد الخامس إلا ملعقتين من الأرز وملعقتين من السلطة ، ثم تناول ربع تفاحة وشرب كوبا من الشاى، وحمد الله على عظيم فضله وجزيل نعمته. أما الأمير الصغير الحسن الذى صار ملكا بعد ذلك، فقد جلس على المائدة وقتا طويلا، وراح يأكل من كل الأصناف.

وكان الملك بين الحين والآخر يسدد إليه نظرات حادة ، ولكن الأمير الصغير لم يدرك معناها. وبعد انصراف حاكم الجزيرة الفرنسى من حضرة الملك، قال الملك للأمير الصغير : كيف تأكل بهذه الصورة أمام الفرنسيين؟ ألا تشعر بالخجل؟ وقال الأمير الصغير معتذرا: لقد كنت أشعر بالجوع، فأنا لم آكل شيئا منذ ٢٤ ساعة. وقال الملك: كان ينبغى عليك أن تتحمل أمام الفرنسيين . إنهم يريدون إذلالنا، وأنت أمير وابن ملك، وعليك أن تتحمل!

وفى كتاب (آداب السلوك فى معاملة الملوك) أن الأكل مع الملوك شرف، ولكنه يحذر الآكلين من التصرف بحرية على مائدة الملك لأن الشرف فى المؤاكلة وليس الأكل. ولأن هناك محاذير فى الأكل مع الملك، فليس هناك أبشع من منظر رجل يأكل على راحته، وقد يؤذى الملك منظره، فتكون الفاصلةولايعود الملك يراه بعد ذلك. وقيل عن ابن تيمية إنه كان إذا دعى إلى وليمة، أكل فى بيته أولا ، ثم جلس فى الوليمة يمثل أنه يأكل معهم!!

وللإسلام آداب وتقاليد فى الأكل. وعلى الآكلين احترامها والالتزام بها. فإذا دعيت إلى وليمة لا تصطحب معك أحدا، فقد يكون صاحب الدار غير مستعد لاستقبال هذا الضيف. وفى البخارى عن ابن مسعود الأنصارى أن النبى صلوات الله عليه وسلامه دعى إلى طعام مع أربعة من الصحابة ثم تبعهم سادس وهم فى طريقهم إلى الوليمة، وعندما وصلوا إلى الدار وقف الرسول عند الباب واستدعى صاحب الدار واستأذنه بالنسبة للضيف الجديد... فأذن له بالدخول. ولكن الرسول لم يستأذن صاحب الدار فى وليمة أخرى فى اصطحاب أنس بن مالك معه، لأن سيدنا «أنس» كان خادم الرسول، وخادم الضيف يتبعه أينما ذهب، وهو أمر مألوف حتى اليوم، بالنسبة للسائق مثلا. ومن آداب الإسلام أيضا أن ينصرف الضيف بعد الانتهاء من الطعام بفترة وجيزة، لأن المكوث طويلا قد يؤذى صاحب الدار. وحدث أن بعض ضيوف النبى كانوا يطيلون الجلوس والحديث بعد تناول الطعام، وكان الرسول يشعر بالضيق ولكنه يستحى منهم، حتى نزلت الآية الكريمة : ﴿ **فإذا طعمتم فانتشروا ولامستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق**﴾

والشكر لصاحب الدعوة واجب والدعاء له باستمرار النعمة ومواصلة العيش الرغد سنة، وعن أنس بن مالك أن الرسول ذهب إلى سعد بن عبادة فجاءه بخبز وزيت، فأكل الرسول ثم قال : « أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة » وبالنسبة للضيف الذى يصطحب معه رفيقا لم يدعه صاحب الدار، فقد أسماه الشاعر ضيفنن، وقال الشاعر فى هذا المعنى :

إذا جاء ضيـف جاء للضيف ضيفنن　　فيـأتى على أكل الضيوف الضيافن

ولايجوز الأكل وأنت كاوع على جنبك ، أو منبطح على بطنك ، أو واضع ساقا على ساق، لأن الطعام نعمة وعليك احترامها. وإذا كنت تجلس على هيئة مرتبة فى حضرة وزير أو أمير، فأولى بك احترام النعمة لأنها من عند الله، وواجبك أن تشكر الذى رزقك بها وأن تسأله عدم الانقطاع. أما الأكل متكئا أو منكفئا فهو جهل وسوء أدب وكفر بالنعمة. وكان النبى يجلس فى حضرة الطعام كأنه يصلى. وسأله أعرابى مرة عن سر هذه الجسلة فقال النبى : « إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد، وأحمد الله الذى جعلنى عبدا شكورا ولم يجعلنى جبارا عنيدا » . وروى النسائى عن الرسول أنه قال : « من أكل طعاما وقال الحمد لله الذى أطعمنى هذا من غير حول لى ولا قوة غفر الله ما تقدم من ذنبه » ونسبه إلى معاذ عن ابن أنس رضوان الله عليهم جميعا. وهناك مبدأ ثابت ولا يتغير، إذا خيرك صاحب الدار بين نوعين من الطعام، فاختر الأسهل والأبسط. أذكر أننا طرقنا باب أحد الأصدقاء بعد منتصف الليل بكثير فى قرية من ريف الجيزة، وكان معنا زكريا الحجاوى والشيخ عبد الحميد قطامش والشاعر محمود حسن إسماعيل وأحد الفنانين الذين يتصرفون على طبيعتهم وببساطة وبدون تكلف حتى مع الغرباء . . ونهض صاحب الدار مرحبا ومبتهجا وقال مجاملا: لقد

كنا على وشك إشعال الفرن، ثم سألنا : هل تفضّلون طعاما بسيطا من أطعمة الريف، فطير مشلتت وبيض وزبدة وعسل أبيض وجبنة حلوم؟ أم تفضلون ملوخية وديوكا رومية؟ وكان الذوق يفرض علينا أن نختار الأبسط والأسهل حتى لانسبب الضيق لصاحب الدار، ولكن صاحبنا الطيب النية المفلوت اللسان أجاب على الفور : ديوك رومى أحسن . وشمرت سيدة البيت عن ساعديها وقضينا ثلاث ساعات فى انتظار الطعام، وعندما وضعوه على المائدة لم نأكل منه شيئا، لأنه لم يكن قد نضج بعد .

وكان المرحوم زكريا الحجاوى يأكل بشراهة فى بيوت الأصدقاء الذين يحبهم ويثق فى كرمهم، وكان لايأكل شيئا فى بيوت البخلاء حتى ولو كانوا فى ثراء المرحوم أوناسيس . وكان المرحوم عبد الحميد قطامش يأكل أى شىء وكل شىء فى بيوت الجميع دون استثناء . وكان المرحوم الفنان محمد رضا يأكل براحته وعلى كيفه فى بيوت الأصدقاء، أما فى الدعوات الرسمية فكان يكتفى بشرب الماء فقط، معتذرا بأنه يطبق رجيما قاسيا للغاية بأمر الأطباء . أما الحاج إبراهيم نافع فهو لا يأكل عند الأصدقاء ولا عند الغرباء، لأنه ينشغل فى الدعوات بالإشراف على المائدة وتوزيع الطعام على الحاضرين .

وفى السجن تنكشف حقيقة الإنسان على مائدة الطعام . كنا فى زنزانة واحدة تضم الفنان حسن فؤاد وعشرة زملاء آخرين، وكان السجن يقدم لنا قروانة لحم ليس فيها من اللحم إلا الاسم فقط، أما الحقيقة فهى خليط من العروق والشغت والدهن . وكان معنا فى الزنزانة زميل ثقيل الدم ، وكان من عادته إذا جاءت قروانة اللحم أن يسرع بمد يده فيلتقط بأصابعه المدببة القطعة الوحيدة فى القروانة التى تصلح للأكل، ونهره حسن فؤاد بعد أن تكرر منه هذا العمل على مدى عشرة أيام لافتاً نظره إلى مراعاة الزملاء الآخرين، فأجاب بغباء منقطع النظير : أصل أنا باحب

اللحمة الحمراء، ورد عليه حسن فؤاد ساخرا : وأنت فاهم إن إحنا بنحب اللحمة الوحشة!

ولا يذهب بعقل الإنسان ويصيبه بالجنون إلا الجوع، إذا جاع الإنسان أكل أى شيء حتى لحم أخيه. يذكر العبد لله أننا ونحن طلبة فى السنة أولى ثانوى أننا هربنا من المدرسة ومن البيت، وسافرنا إلى الإسكندرية وقضينا ثلاثة أيام هناك، وكانت الحرب العالمية على ودنه، وطيارات الألمان تدك الإسكندرية كل مساء، وعندما فرغت النقود من جيوبنا قررنا العودة إلى القاهرة سيرا على الأقدام. تصورنا لسذاجتنا أننا سنقطع المسافة فى سبع ساعات، وبعد سبع ساعات من المشى المجهد، اكتشفنا أننا مازلنا فى كفر الدوار، وكان الجوع قد عضنا بشدة، فنزلنا فى حقل فجل على جانب الطريق وأتينا على نصفه، ثم اكتشفنا بعد أن أكلنا وامتلأنا أنه لفت. والغريب أننا أكلنا وشعرنا أثناء الأكل أنها ألذ وجبة أكلناها فى الحياة. وصدق من قال الجوع كافر، ولكن أكثر كفرا منه من يتطفل على موائد الناس!

الحاج بندور الكنتكاوي!

وإذا كنا نقترب الآن من نهاية فصول « وداعا للطواجن » فلابد من الوقوف لحظات أمام ظاهرة خطيرة ، وهى اختفاء المطاعم المتخصصة فى القاهرة. سيقول أحدكم هناك المطعم الصينى والمطعم اللبنانى ومطعم الشعوب إلى آخره. ولكن العبد لله لايقصد هذا النوع من المطاعم، ولكن أقصد المطاعم المصرية المتخصصة .

فى النصف الأول من هذا القرن العشرين كانت القاهرة تزخر وتفخر بعشرات المطاعم المتخصصة المنتشرة فى كل الأحياء، مطعم أبوظريفة للفول المدمس فى باب اللوق ، ومطعم السمك لصاحبه زكى السماك فى بولاق، ومطعم لحمة الرأس للمعلم جعلص فى الجيزة، ومطعم الدهان للنيفة فى سيدنا الحسين ، ومطعم خميس للملوخية بالأرانب فى شارع الألفى، ومطعم الحمام بكل أنواعه لصاحبه الكرداسى فى بين السرايات، ومطعم الطعمية للحلوجى فى سيدنا الحسين ، ومحل البليلة للحاج صبحى الحلوانى فى شارع عبد العزيز ، محل مهدى للفول المدمس فى البراد بشبرا. ومطعم وكازينو الحمام المشوى على شاطئ النيل بالجيزة، ومطعم الشيمى للكباب فى التوفيقية، ومطعم البصل (الأونيون بشارع فؤاد) ، ومطعم أبوشقرة للكباب فى المنيرة ، ومطعم أبوزيد للمخ والكبدة فى معروف . وفى الإسكندرية كان هناك مطعم درويش الذى كان مشهورا بدقية الخضار باللحم ، وهذا المطعم كان موجودا فى محطة مصر وفى مواجهة محطة السكة الحديد. وفى دمياط كان هناك مطعم

أبوطرية . وفى بورسعيد كان هناك مطعم الشيخ الذى كان متخصصا فى الأكلات البحرية ، وكان موقعه بالقرب من الميناء ، وعلى مرمى حجر من البيت الجديد . وفى السويس كان هناك مطعم السنى للسمك المشوى ، وكان مقره فى شارع صغير متفرع من شارع النمسا .

وإلى جانب هذه المطاعم كانت توجد عربات يد متخصصة أيضا فى لون من ألوان الطعام . كان هناك المعلم أبولاشين الذى يقدم كبابا لم أتذوق مثله فى رحلة الحياة ، وكان مكانه خرابة يقوم محلها الآن فرع بنك القاهرة بميدان الجيزة . . وكان هناك عم عثمان بجوار المدبح الإنجليزى وكان يقدم كفتة ليس لها شبيه فى أى مكان . وهناك عم سليمان الذى كان يدور على بارات ومقاهى شارعى توفيق وعماد الدين بلحمة رأس ليس لها مثيل إلا فى سوق البازار بطهران . أما الدكتور فكان يسرح بفانوس فى شارع شريف وميدان باب اللوق وكان متخصصا فى بيع السميط والجبنة الرومى البلكان .

أين هذا كله مما نحن فيه الآن ؟ حاول أن تذكر لى أى مطعم مصرى متخصص الآن وعلى مستوى .

والعبد لله على صلة بعدد من خبراء المطاعم منهم المهندس الكبير والوزير السابق على والى والسفير الدكتور مصطفى الفقى والصحفى المتفجر كالبركان إبراهيم حجازى ، والمعلم العجوز والكاتب الفنان محمد عودة والممثل الكوميدى الكبير حسن مصطفى والولد العكروت الصحفى فرفور . وكان من بينهم أيضا الممثل الراحل على الغندور والفنان الكبير الذى غادر دنيانا منذ أسابيع المعلم محمد رضا .

ولكن لأن الحال فى عالم المطاعم وصل إلى حد «يامولاى كما خلقتنى» فلم يعد لدى أغلبهم مايشير به على العبد لله . أحيانا يقترح حسن

مصطفى مطعما هنا أو مطعما هناك . ولكن تجربة العبد لله مع مطاعم حسن مصطفى جعلتنى أؤمن بالحكمة القائلة : « اللى ما تعرفوش أحسن م اللى تعرفه» . أذكر منذ ربع قرن على وجه التقريب أن دلنى على الغندور على مطعم صغير على الطريق بين القاهرة وبنها ، وبالقرب من قرية صغيرة اسمها ميت عاصم، وكان متخصصا فى تقديم أكلة من لحم الماعز المشوى، وكانت نصيحة فى محلها ، ولكن المحل والمنطقة التى حوله مسحهما صاروخ إسرائيلى خلال الحرب ، وقضى على حياة عشرات من الأطفال الأبرياء، مع أننى كنت أغفر لإسرائيل جريمتها لو صوبت هذا الصاروخ إلى محل فول مدمس نصحنى بالتردد عليه حسن مصطفى ، ولن أحدد موقعه حتى لايتحاشى الأعداء ضربه فى الحروب القادمة .

وآخر مطعم لحمة رأس جربته كان منذ عدة سنوات قليلة مضت، وكان المطعم فخيما وديكوراته غالية وجرسوناته فى أحسن هيئة وفى أغلى ملابس، ولكن صلة المطعم بلحمة الرأس، كانت أشبه بصلة العبد لله بالكمبيوتر! ولم يستطع المطعم إياه والذى تكلف إنشاؤه الشىء الفلانى الصمود أكثر من عامين ثم أغلق أبوابه . لأن المطاعم بالطعام الذى تقدمه وليس بالديكور والجرسونات ونوع الأطباق والأكواب!

ولكن ما السبب فى هذا الإفلاس الذى نعانى منه الآن فى هذه النوعية من المطاعم المتخصصة؟ السبب فى رأى العبد لله هو عدم وجود المعلم ، وإن أغلب أصحاب المطاعم الجديدة يملكون الفلوس ولايملكون سر الصنعة . وغالبا علاقة هؤلاء بالصنعة مفقودة ومقطوعة . هم فى ظنى من المصريين الذين نزحوا إلى منطقة الخليج وعادوا بعكمة لابأس بها ، وأرادوا استثمارها فى أى شىء، ثم سمعوا أن المطاعم تربح فدخلوا السوق على طمع وليس على رغبة فى تقديم صنعة يملكون سرها ولايملكها غيرهم .

فى مطعم الكرداسى للحمام الذى كان يقع فى حى بين السرايات وأمام جامعة القاهرة ، كان يعرض على الزبون الحمام فى أقفاصه، وكان الزبون يختار ما يلزمه ، فيذبحه وينظفه أمامك ويعده لك بالطريقة التى تختارها . وأراهنك إذا لم تأكل أصابعك العشرة مع الحمام. وكان المعلم جعلص يشعر باللذة الفائقة وهو يقف أمام النار أثناء إنضاج لحم الرأس، وكان يدندن وهويصنع الأرز لزوم الفتة .

الآن اختلف الحال وتغير السلوك. أعرف صاحب مطعم مشهور اشتهر بتقديم لون من ألوان اللحم المشوى، وأصبح اسم مطعمه نهبا مباحا لعشرات المطاعم التى انتشرت فى الخليج، الرجل نفسه لم يعد يتردد على مطعمه فى القاهرة وترك الأمر لصبيانه، ومعظمهم لاعلاقة له بالصنعة، وهم يعملون بالمهنة لعدم وجود وظائف خالية فى أى مكان، لأن الزبائن كثير فقد أصبحت العجلة هى طابع المحل، وأخشى عليه إذا لم يهتم صاحبه بالعودة إلى الأيام الأولى عند البداية فى فترة الأربعينات .

وأعتقد أن على وزير السياحة واجب الاهتمام بهذه الناحية على أساس أن هذه المطاعم جزء هام فى تشجيع السياحة العربية . ولأن بعض المدن تعرف بمطاعمها. فالذى يزور دمشق الشام ولايأكل عند أبوكمال لم يزر الشام، والذى يزور بغداد ولايأكل عند ابن السمينة لم يزر بغداد، والذى يزور الكويت ولم يأكل عند مطعم الشجرة لم يزر الكويت، والذى يزور الرياض ولم يأكل عند أبوشقرة السعودى لم يزر الرياض. وزمان كان الذى يزور عمان ولايأكل عند السنترال لم يزر عمان، وزمان أيضا كان الذى يزور بيروت ولم يأكل فى اليلدزدار لم يزر بيروت .

وفى المدن الشهيرة بأوروبا مطاعم كثيرة تقدم مختلف ألوان الطعام . والطباخ الذى يصنع الوجبات يتقاضى راتبا أكبر من راتب الرئيس

ميتران. وباريس بالذات لها نظام خاص... فلها أطلس للمطاعم، وكما يحدد أطلس الجغرافيا طبيعة مناطق العالم.. ويصنفها أيضا، يفعل أطلس المطاعم نفس الشيء. وضربت كفا بكف وأنا أتصفح أطلس المطاعم مع الصديق الدكتور صفوان عالم النفس الشهير فى باريس، الأطلس يقول إن المطاعم أربعة. مطعم الشعب... وهو المطعم الذى يقدم وجبات خفيفة وسريعة وع الماشى لمن يريد من المارة وعابرى السبيل! ومطعم الريف... ويقدم وجبات الريف الفرنسى، فطير مشلتت بالزبدة الفرنساوى، وأرز معمر بالأرانب وبيض مشوى فى تراب الفرن! ومطعم النسوان... ويقدم نفس الأكل الذى تقدمه ربات البيوت، فاصوليا مسبكة، ولوبيا باللحم، وفراخ مشوية، ومكرونة بالجبنة، وسلطة بالخل والثوم! ومطاعم «الشيف»... وهى مطاعم تخترع الطعام، وكل مطعم حسب همة «الشيف» ومقدرته!

واخترت مطعم «الشيف» لأننى لا أستطيع مواجهة تكاليفه على حسابى، وأيضا لأن أصدقائى الذين سبق لهم دعوتى من قبل كانوا من أنصار المطعم الشعبى! وفى مطعم البذور تناولت عشائى الذى اخترعه «الشيف» ومن عادته الطواف على الزبائن يسألهم رأيهم فيما أكلوه.

كان عشائى مكونا من لحمة مخللة وعش غراب مقلى مع فواكه، وعصير سمك، وحمام مدقوق بأعشاب برية! وعندما طلبت شريحة بطيخ عقب العشاء، ضحك الجرسون لأن مطعم الشيف لايقدم مواد معروفة، وعندما سألت عن نوع الحلوى التى يقدمونها، أجابنى الجرسون: لدينا فراولة بالأرانب، وخوخ بالبطارخ! ولذلك.. اكتفيت بالعشاء، وفضلت تناول الشاى فى قهوة بلدى فى الحى العربى!

ولكن أغرب شىء أنه ـ رغم الفاتورة التى حملت أرقاما فلكية ـ لايوجد فى المطعم مكان لقدم، وعلى باب المطعم طابور كطابور الجمعية الاستهلاكية! ولذلك أيضا قررت أن أوطد صداقتى بالكابتن جابر يحيى

مدير مطعم فول نوارة بالكويت وأعتقد أنه لو ذهب إلى باريس لاحتل مكانة لا بأس بها على رأس قائمة مطاعم الشيف فى أطلس المطاعم، فقط لو أدخل بعض التطوير وبعض التغيير.

ولاشك أن أبوشقرة الكبابجى، أو العجاتى الحاتى بدأ المهنة قبل كنتاكى فرايد تشكن، ولاشك أيضا أن صنعة العجاتى وأبو شقرة أو أبولاشين أفضل ألف مرة من صنعة العم كنتاكى .

ولكن المعلمين المصريين توقفوا عند أول خطوة على طريق النجاح، وقَبَّلَ كل منهم يده ظهرا وبطنا، وكده رضا وربنا يديمها نعمة، وارض بنصيبك. . مايصيبك إلاّ المكتوب على جبينك، ولكن العم كنتاكى طور وغير وفرض خلطته على العالم كله، وهذا هو الفرق بين الأسطى الأمريكى والأسطى المصرى ، الأسطى المصرى بالتأكيد أفضل وأحسن، ولكنه يخشى العين الشريرة إذا اتسعت أعماله أو امتدت تجارته. وبينما شعار الصانع الأمريكى : اسع تسعى معك الحياة ، تجد شعار المصرى : القناعة كنز لايفنى. .

ولو كان المعلم جعلص خبير لحمة الرأس اهتم بتوسيع مشروعه، ولو أنه اهتم باختراع وسيلة لحفظ المرق ولحمة الرأس والفتة بالخل والثوم ونشرها فى أنحاء العالم، فهو بالتأكيد كان سيصبح مليونيرا ولا الخواجة ماكدونالد، وأكثر شهرة ربما من الملاكم فورمان! ولكن الذى حدث أن العم كنتاكى صار مشهورا حتى فى الغابات،، بينما أغلق محل جعلص أبوابه بعد وفاته بالضبة والمفتاح.

وما حدث لجعلص يرحمه الله حدث لكثير من الصناع فى مصر، وحدث أيضا فى مجالات أخرى من ياسين بتاع الزجاج إلى الشوربجى بتاع النسيج إلى الأسطى أمين الجب بتاع الجزم ، وكانت أحذيته يرحمه الله أفضل كثيرا من أحذية ساكسون وباللى والخواجا كلارك!

من طأطأ لسلام عليكم !

الآن أيها الأخوة والخلاَّن ، مارايكم دام فضلكم فيما يجب أن يفعله العبد لله فى قادم الأيام؟ خصوصا بعد أن عرضت على حضراتكم المسألة كلها ومن طأطأ إلى سلام عليكم ؟ والسؤال الذى يحير العبد لله ولا أجد فى نفسى الجرأة على الإجابة عليه هو بالتحديد : هل أسلم بطنى لمشرط الجراح يفتح ويقص ويبتر ويزيح مايشاء؟ أم أمضى إلى نهاية العمر كما مضى الأجداد الذين لم يعرفوا طبيبا فى حياتهم؟ولم تعرف المشارط طريقها إلى أجسامهم؟

صحيح أنه سؤال محير ويجعل الإنسان فى حيص بيص ، لأننى ، وإن كانت علاقتى بالطب كعلاقة خالتى أم عبد الشكور بصيد اللؤلؤ، إلا أننى مؤمن تماما بأن العمليات الجراحية ليست مباراة كرة قدم تبدأ وتنتهى ثم يعود كل شىء إلى أصله .

كما أن إزالة جزء من جسم الإنسان ليست مسألة روتينية ، ولكنها مسألة خطيرة وينطبق عليها قول المطرب : والفرع لو مال .. مين يعدله تانى ؟

فكل شىء وأى شىء فى جسم الإنسان خلقه الله لحكمه ولضرورة . حتى الزائدة الدودية وحتى اللوزتين . وأعترف لحضراتكم بأن تجربة الحياة أثبتت للعبد لله أن المستشفيات والأطباء والدواء والتحاليل والاختبارات ، هى مسائل واردة على البشرية حديثا ، ولم يكن لها وجود خلال القرون الطويلة التى عاشتها البشرية ومنذ أبونا آدم .

وفى رأى العبد لله أن الذى اخترع مهنة الطب لم يكن يخطر على باله أن المهنة نفسها ستتحول فى النهاية إلى تجارة . وهناك تجارة مشروعة وتجارة خبيثة، وللأسف الشديد أصبحت تجارة الطب من التجارات الخبيثة، خصوصا فى أوروبا ، وعندما يكون المريض من أصحاب الغترة والعقال أو من ذوى الطواقى المزركشة من أبناء القارة السمراء، وبالتحديد من أبناء الدول الأفريقية البترولية . ياويل المريض منهم إذا وقع فى يد عصابة الطب هناك . سيدوخ دوخة الأرملة وسيدفع كاش ومقدما وسيجرى أكثر من عملية ، أكثرها عمليات ليس لها عايدة ولافايدة ولاعلاقة لها بالمرض الذى يعانيه . المهم استنزافه إلى آخر فلس فى جيبه . كما شبكة المخدرات، وتنظيمات المافيا .

أيضا أطباء أوروبا اليوم كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا . يسلمك طبيب الأذن والأنف والحنجرة لطبيب الأعصاب، وطبيب المخ يشقطك لطبيب العظام، وطبيب العظام يحولك إلى طبيب الدورة الدموية الذى يقذف بك إلى طبيب القلب!

فى الصيف الماضى كنت مع ابنى أكرم فى عيادة طبيب أذن وأنف وحنجرة للبحث عن السر وراء الكحة التى تهاجم أكرم أحيانا، وقد حضرنا عند الطبيب إياه من خلال طبيب الصدر، وكنا عند طبيب الصدر من خلال طبيب القلب . وفوجئت بطبيب الأذن والأنف يتقدم نحوى بورقة لتوقيعها وألقيت نظرة على الورقة فإذا بها إذن بإجراء جراحة عاجلة لأكرم لإزالة لحمية الأنف .

وسألت الطبيب : وهل هى السبب فى الكحة؟ فأجابنى بأعصاب قاتل محترف : لا ليس لها علاقة! سألته : ولماذا نجريها إذن؟

أجاب : هذا ، أفضل . عدت أسأله : كم تكلف؟

أجاب : ألفين من الجنيهات بخلاف أجر المستشفى وطبيب التخدير والدواء ! !

ألفان علاج فى عملية تستغرق ربع ساعة ، وهى عملية ليست مطلوبة وليست مفيدة، ولناس ليسوا من بلاد بترولية ولا حتى من بلاد تحصل على الذهب من باطن الأرض!

والغريب أنه يشترك مع المافيا الطبية فى أوروبا مكاتب طبية رسمية تتبع السفارات العربية ، مكتب من هؤلاء فى عاصمة غربية كبرى يديره طبيب معتوه، ويصر على أن يناديه الآخرون بلقب المستشار، وهذا السيد المستشار المزعوم تسبب فى قتل خمسة من المرضى من مواطنيه، لأنه أصر على إجراء عمليات جراحية لهم فى مستشفيات مشبوهة ولدى أطباء غير مؤهلين. ولكن ارتباط السيد المستشار بهم سببه الحكمة الخالدة شيلنى واشيلك وراعينى قيراط أراعيك قيراطين!

ويا ألف رحمة ونور على عبقرى الطب المصرى، ذهبت إلى عيادته عقب خروجى من سجن الواحات وكنت فى حالة صحية يرثى لها وكشف الطبيب العبقرى أنور المفتى على العبدلله نصحنى بعمل تحاليل كاملة ، وعدت إليه بعد التحليل فنصحنى بعمل قياس للغدة الدرقية فى مستشفى القوات المسلحة، وعدت إليه بعد عمل القياس، فنصحنى بعمل قياس آخر، فى مستشفى آخر، ثم وبعد شهرين من الدوخة ، قال لى : ليس بك أى علة وصحتك بمب . قلت للدكتور المفتى : ولِمَ لم تقل لى ذلك من البداية؟ قال : لأنك كنت خارجا من السجن فى حالة يرثى لها، وكنت عصبيا وقلقا وشديد الثقة بأنك مريض بمرض خطير، ولو قلت لك إنك لاتعانى أى مرض فى أول مقابلة لحكمت على بأننى جاهل، وبالتأكيد كنت ستذهب إلى طبيب آخر. والمرضى من أمثالك يصبحون مورد رزق لبعض الأطباء الذين هم بلا ضمير.

قد يقول بعضكم إن الدكتور أنور المفتى جعلك تنفق كثيرا فى عمليات التحاليل والاختبارات وقياس الغدة الدرقية . ولكنى فى الحقيقة لم أتكلف شيئا ، لأن الدكتور المفتى كان يبعث بى لتلاميذه الذين أصبحوا مسئولين فى أكبر المستشفيات ، وكانت مكالمة من المفتى لأحدهم تجعله يقف على أطراف أصابعه حتى ينتهى من المهمة التى كلفه بها أستاذه العظيم . ولكن الدكتور المفتى مات وماتت أيامه . ولم يبق من أيامه الآن إلا ومضات هنا وهناك .

محمد غنيم فى المنصورة ، وحسام بدراوى فى مستشفى النيل بدراوى ، وإسماعيل سلام فى مركز القلب بمصر الجديدة ، وحليم جريس فى مستشفى الأنجلو بالجزيرة ، وخيرى السمرة وهاشم فؤاد وصلاح عيسى وعبد المعز فى مستشفى بولاق الدكرور ، وعدد آخر من الأطباء هم فى الحقيقة مجرد نقطة فى بحر !

نعود من جديد إلى سؤالنا الأول ، هل أسلم جسمى لجراح يعبث فيه بمشرطه كيف يشاء؟ أم أقضى حياتى إلى نهايتها كما قضاها الحاج محمد السعدنى ، جدى الذى عاش مائة عام وخمسة دون أن يمر على طبيب ، ومات دون أن يكون فى جسمه اثر لمشرط ، مع أنه كان يشكو أحيانا مواضع فى بطنه لو رآها طبيب لاقترح عليه إجراء عملية فوراً ، ولو كان هذا حدث لجدى الشيخ محمد ، فربما مات قبل أن يبلغ الخمسين ، لأنه لاضمان فى أى عملية جراحية حتى أصغرها وأبسطها ، والملك محمد الخامس ملك المغرب مات أثناء إجراء عملية جراحية لإزالة المصران الأعور . وهى عملية يجرى مثلها ألوف الفلاحين فى أنحاء مصر كلها ويخرجون بعدها إلى الحقول ، ولكن الملك محمد الخامس مات مع أنّ الذى أجرى له العملية فريق طبى من فرنسا! والمؤرخ المصرى الكبير محمد أنيس جاء ذات يوم إلى لندن لإجراء جراحة فى شرايين القلب ،

وكان الدكتور أنيس فى السبعين من عمره وقتئذ ، ونصحه العبد لله بعدم إجراء أى عملية فى هذه السن، ولكن أخانا أحمد عباس صالح شجعه بشدة ، وطمأنه على أن كل شىء سيكون على مايرام .

والمدهش أن الدكتور أنيس استجاب لنصيحة عباس صالح ، مع أنه كان يدرك تمام الإدراك أن عباس صالح عضو فى رابطة الأدباء، وليس عضوا بنقابة الأطباء، ودخل الدكتور أنيس المستشفى ولم نره بعد ذلك على الإطلاق، فقد أرسلته نصيحة عباس صالح إلى مقابر الإمام .

أعرف شابا فتيا ذهب إلى لندن للعلاج لإجراء عملية فى الجهاز الهضمى ، وبالمرة ولزيادة الخير خيرين، طلب من الجراح إجراء عملية أخرى لإزالة ورم حميد فى الفخذ، وأجريت العملية الأولى بنجاح، وفى العملية الثانية مات المريض ليس من العملية ولكن من البنج!

فالبعد عن العمليات غنيمة ، وهذا رأى العبد لله بالطبع، وليس رأى الطب . ورأى العبد لله هو نتيجة تجربة لمستها بنفسى، والمثل عندى هو جدى الشيخ خليل معوض الذى عاش (١١٧) سنة دون أن يدخل المستشفى، أو يسلم نفسه لطبيب، وكان طبيب نفسه ولم يسمح لطبيب بالكشف عليه إلاّ فى العام الأخير من حياته وبإلحاح من العبد لله .

هناك سؤال آخر ينتظر الإجابة عليه . هل أكف عن أكل اللحوم بأنواعها؟

هل أودع الطواجن وورق اللحمة وسلطانية الطرشى؟ هل أودع الملوخية بالتقلية، والعكاوى بالتخديعة والكشرى بالدقة، والباذنجان المخلل بالثوم والخل؟

هل يقتصر طعام العبد الله على كوب شاى فى الصباح وقطعة بقسماط ناشف، وشوربة خضار فى الغداء، وطبق فواكه فى العشاء؟

وهو الطعام الذى يليق بشيخ فى عمر العبد لله .

الحق أقول إننى فى هذه المسألة بالذات أحب الجمع بين جميع الوظائف، ألتهم ما أشتهيه من الأطعمة، وابتعد قدر المستطاع عن سكة الأطباء، لأنها سكة غير مأمونة وغير مضمونة، ولأنه لاقيمة لحياة يعيشها الإنسان تحت إشراف الطبيب أو هيمنة السجان .

والعبد لله يعرف نماذج من البشر لديها من الأدوية مايكفى لفرش شقة من أربع حجرات، وأعرف صديقا يتناول خمسة أدوية فى كل وجبة، وأعرف صديقا فى لندن يتناول حبات الدواء كما يقزقز الطفل الشقى اللب الأسمر على قارعة الطريق . ولكن العبد لله ينتمى إلى صنف آخر من البشر، فأنا أتناول من الدواء حبة أو اثنين وألقى بالباقى فى سلة المهملات، ولا اذكر أننى أكملت دواء وصفه الطبيب خلال رحلة الحياة، ولا أتردد على عيادات أطباء الأسنان إلا إذا شعرت بالألم الشديد الذى يحرمنى من الأكل ومن الكتابة ومن القراءة ومن النوم .

وبالرغم من أننى زرت أوروبا أكثر من ألف مرة فى حياتى ، إلا أننى لم أعرض نفسى على أطباء إلا مرتين ، مرة عندما زرت دكتور « تانر» الذى كان يعالج عبد الحليم حافظ ولم يوقع الكشف على العبد لله ، لأنه قطع المقابلة اثناء المناقشة المبدئية عندما علم أننى مصرى، وقال أنتم المصريين تأكلون (. . .) ووصف طعام المصريين بوصف أرى من اللياقة عدم تكراره مرة أخرى، والمرة الثانية عندما زرت طبيب أمراض جلدية للكشف على « حسنة» على جلد صدرى ظلت تتضخم حتى صارت فى حجم الريال الفضة بتاع السلطان حسين كامل رحمة الله عليه، وخفت أن يكون وراء هذه الحسنة شىء لاتحمد عقباه، فهرولت إلى الطبيب فلما طمأننى بأن كل شىء على مايرام، سألته هل هناك شىء يمكن أن يفعله؟ أجابنى بأنه على استعداد لإزالتها بالجراحة . وسألته مرة أخرى :

هل تقتلنى إذا تركتها فى مكانها؟ فأجابنى: أبدا إن وجودها كعدمها لاتضر ولاتفيد.

وعندئذ قررت أن أتركها مكانها، ولاتزال مكانها حتى كتابة هذه السطور.

وأعتقد أننى سأعيش حياتى على النحو الذى اخترته وعلى الطريق الذى سلكته منذ البداية. لا أطباء.. لاداواء.. لاحظر على أى طعام، لاحساب للمقادير والسعرات. لاتفتيش على الكلسترول أو نسبة السكر، ولا حتى اهتمام بالضغط وقياسه والنبض واختباره، باعتبارها كلها أشياء حديثة ودخيلة على حياة الإنسان.

هذا هو الذى قررته وهذا هو الذى اعتقدته، وهذا رأى العبد لله فما رأيك أنت؟

وأخيرا.. لا أقول وداعا للطواجن، ولكن أقول وداعا لعيادات الأطباء!

الفهـــرس

رقم الايداع : ٩٥/٨١٢٥
I.S.B. N 977 - 09 - 0305 -1

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

وداعا للطواجن

أخوكم العبد لله كان أكيلا عالميا ليس له نظير، ومحسوبكم كان على مائدة الطعام ولا تايسون على حلبات الملاكمة، ولا مارادونا فى الملاعب الخضراء!. ولو اتفق العرب زمان على إرسال العبد لله ممثلا لهم فى الدورة الأولمبية رئيسا لفريق الهبر الدولى لضمنت لكم العودة بميدالية من ذهب إن لم تكن من ألماظ، وفى أيام شبابى الذى ولىّ كنت أحلم دائما بحكم تصدره محكمة الجنايات ضدى بالحبس لمدة عشرة أعوام فى حلة ملوخية بالتقلية والأرانب، مع طبق سلطة خضراء مرشوش عليها قفة شطة سودانى من النوع القاتل، وحتى لو أدت إلى موتى؛ فسأموت سعيدا كشهداء الغرام. وإذا كانت المعدة هى بيت الداء كما يقولون فهى عند العبد لله بيت المزاج وبيت الانشكاح!

ولكن ذلك كان زمان ومضى..

ومنذ سنوات مضت والعبد لله يحس بشعور عميق بأن الوقت قد حان للاعتزال، صحيح أننى مازلت ألعب على موائد الطعام، ولكنى ألعب على الموائد كما يلعب هشام يكن مع الشباب الآن وكما يلعب جمال عبد الحميد مع فريق الزمالك!....

محمود السعدنى